القراءة النفسية للنص الأدبي العربي

الدكتور محمد عيسى*

الملخص

إن القراءة النفسية واحدة من القراءات النقدية التي استهدفت قراءة النص الأدبي، وهي تنطلق من منهج نقدي نفسي متقن، وذلك في استخدام الأدوات المناسبة من أجل الوصول إلى الغاية المرجوة من النص.

ويحاول هذا البحث الإحاطة بمفهوم القراءة النفسية في الاتجاه النفسي العام، ويبحث عن مكونات القراءة وأبعادها، استناداً إلى الأطروحات النقدية التي أطلقها الباحثون.

ويهدف البحث إلى تتبع ما قدمه الباحثون من جهود نقدية لقراءة النص الأدبي العربي قراءة نفسية، ويسعى إلى معرفة القضايا التي أثاروها في أثناء تفسير النص وتحليله، انطلاقاً من العلاقة الوطيدة بين الإبداع الأدبي وعلم النفس.

* قسم اللغة العربية- كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة البعث.

بين يدي البحث:

شهد النقد الأدبي العربي اهتماماً ملحوظاً بدراسة النص، ورفدت الحركة النقدية في الآونة الأخيرة ببحوث مهمة تعنى بقضاياً استجابة المتلقي للنص المبدع، بما في ذلك عملية التلقي نفسها وما تتضمنه من " قراءات"، تتلامح فيها مقولات نقدية ترمي إلى ما يشبه "إعادة إنتاج النص" و تحديد الموقف النقدي منه.

وكثُرت النظريات النقدية التي تعالج النص الأدبي و تدرسه من داخله، انطلاقاً من قدراته الإبداعية المتجددة، بوصفه عالماً يمور بالدلالات والإشارات، وأصبحنا نألف تعدد المصطلحات التي تفرزها تلك النظريات في أثناء دراسة النص،وهي عنوانات بحثية جديرة بالمتابعة والاهتمام كمصطلح "علم النص"و"قراءة النص" و"تفسير النص" و" تأويل النص" و "علم لغة النص" وغير ذلك.

ولاشك في أن النص طاقة غنية متجددة، و يمتلك قدراً فائقاً من الإيحاء و التأثير، مما يفسح للمتلقي فرصة الدراسة والسبر والتقصي باستمرار، ويدفع الاتجاهات النقدية إلى مزيد من الاجتهاد و البحث.

وقد اجتهدت الاتجاهات في تقديم " قراءاتها " المختلفة، ورصدت العناصر المكونة للنص، وقامت بتفسيرها وتحليلها وتأويلها بغية استيعاب مضمرات النص، وبات مألوفاً وجود قراءة بنيوية، و قراءة ألسنية، و قراءة سيميائية، وقراءة تفكيكية، وغير ذلك من القراءات الأخرى التي تناولت النص الأدبي بالدرس والتحليل، الأمر الذي يؤكد التفاعل المستمر بين القارئ والنص.

ويحاول هذا البحث أن يسبر المقولات النفسية التي تعاملت مع النص من المنظور النفسي، ويستعرض المقولات النفسية المؤسسة لقراءة نقدية نفسية، ويحاول أيضاً الكشف عن مرجعيات تلك القراءة، وبيان مكانتها في الحركة النقدية الأدبية العربية.

إن القراءة النفسية للنص الأدبي تقع ضمن منظومات القراءات المتعددة التي جربت أدواتها النقدية في دراسة النص و هي ليست معزولة عن غيرها، بل نلحظ تداخلات مهمة حصلت بين تلك القراءات، و هذا أمر مهم يجب توكيده، إذ إن القراءة النفسية غير معزولة في سيرورتها عن القراءات الأخرى.

و صحيح أن لكل قراءة من القراءات حدوداً فاصلة و أدوات خاصة، إلا أن التداخل بين القراءات أمر تقره طبيعة التفاعل بين اتجاهين نقديين أو أكثر، والمهم في ذلك كله أن نخلص إلى شيء مفيد يصاغ في قالب تساؤلات: هل استطاعت القراءة النفسية أن تبصرنا بعالم النص ؟ وهل قدمت لنا أستجابة متفاعلة معه ؟ وهل كشفت عن مكوناته؟ تلك تساؤلات من صميم هذا البحث وغايته، إضافة إلى غايات أخرى تتمثل في إيجاد روابط نقدية بين تلك المحاولات التي بذلها أصحابها في سبيل فهم نفسي أوسع للنص، واجتهدوا كي يقدموا رؤية نقدية مختلفة للنص، وذلك باستخدام أدواتهم النفسية المتقنة.

القراءة النفسية في المفهوم و الاصطلاح:

يهتم هذا البحث بمفهوم ألقراءة النفسية للنص الأدبي العربي، ويرصد ماقام به الباحثون النفسيون من تحليل وسبر وتقص لمكونات النص ذاته، دون الاهتمام بالقضايا الأخرى التي لم تلامس النص من داخله، ويُبنى فهمنا للاصطلاح المتوخى في هذه الدراسة على دعامتين أساسيتين هما:((القراءة)) و((النفسية)) وسنفصل الحديث عنهما لتحديد المراد من ذلك.

آ ـ ((القراءة))

إن علاقة أكيدة تنشأ بين النص والمتلقي، وهي علاقة قوامها التأثير والتأثر، أو مايمكن أن نسميه ((الاستجابة))، ومن المناسب أن يتم التساؤل ـــ في المناهج النقدية

كلها ــ كيف نقرأ النص ؟ وفي ذلك التساؤل يُنظر إلى أهمية المحتوى في النص، بوصفه حمال أوجه ودلالات، بغية الوصول إلى المطلوب.

وقد راجت ((عمليات القراءة)) في مقولات الباحثين والنقاد، وظهرت آراء (فولفجانج إيزر) المهمة في التلقي، واعتقد فيها أن القارئ هو الغاية في قصدية المؤلف لحظة الإبداع الأدبي، وأن عمل الناقد الأدبي هو تبيان الأثر المتبقي في عملية القراءة ذاتها، وإظهار استجابة القارئ (المميز) في إدراكا ته للنص المقروء.

والمتتبع لآراء(إيزر) يلاحظ أن القراءة تسير في اتجاهين متداخلين: من النص إلى القارئ، ومن القارئ إلى النص، ويمكننا أن نعدّ هذا الفهم أساساً مهماً في القراءة واستجابة المتلقي، وبذلك يصبح النص مصدراً غنياً ((ينشط قدراتنا، ويمكننا من إعادة خلق العالم الذي يخلقه))[1].

ولا يخفى علينا أ ن هنالك صعوبات كامنة في مسألة ((استجابة)) المتلقي للنص، وفقاً للأدوات النقدية التي تُستخدم في منهج ما من المناهج، إذ ليس من السهل تبيان التفاعل في تلك الاستجابة لدى الناقد، لأن النقد الأدبي ((لايتوفر إلا على الشيء القليل جداً من ناحية الخطوط الموجهة، وبالطبع فإن الشريكين في عملية التواصل، أي النص، والقارىء أكثر سهولة في التحليل من الحدث الذي يحصل بينهما))[2].

وبناء على ذلك، ينظر إلى القراءة على أنها شاملة لقضايا مهمة أبرزها ((التلقي)) و((التأثير))، وهاتان ركيزتان أساسيتان في القراءة، ولا يمكن تمثل الشمولية في ذلك إلا بتضافر المناهج المعرفية (الابستمولوجية) والنقدية، كالبنيوية واللسانية والسيميائية

1- فولفجانج إيزر، عمليات القراءة، ترجمة علي عفيفي، مجلة فصول، القاهرة المجلد السادس عشر العدد الرابع، ربيع 1988، ص 147.

2- فولفجانج إيزر، التفاعل بين النص والقارىء، ترجمة الجيلاني الكدية،مجلة دراسات سيميائية أدبية الدار البيضاء، المغرب، العدد السابع، 1992، ص 8.

السيسيولوجيه، إضافة إلى أبعاد السيكولوجية: كالسبر والتحليل والتفسير وغير ذلك.

إن البحث في عملية ((القراءة)) يتحول إلى تتبع متقن، وفي ذلك يتم التركيز على القارئ ويصبح المتلقي ((هو المهم في تشكل النص الأدبي))3، وبفضله تأخذ القراءة مساراً متجدداً في مكوّناته، وبذلك يتقاطع ـ أحياناً ـ السيكولوجي والاجتماعي والسيميائي وغير ذلك.

إن سيرورة ((القراءة)) للمتلقي، هي عملية دينامية وحركة كشف مستمرة، والنص الأدبي وسيلة جاذبة لتلك العملية، والقارئ ((سوف يجلب إلى العمل ضروباً معينة من الفهم المسبق، وسياقاً مبهماً من القناعات والتوقعات التي يتم من ضمنها تقييم خصائص العمل المتنوعة (...)، وسوف يختار عناصره وينظمها في وحدات كلية متصلة، مقصياً بعضها ومقدّماً بعضها الآخر))[4].

ومن المفيد أن نذكر أن مصطلح القراءة، جاوز كثيراً من الدلالات الملتبسة، وغدا مفهوماً يتضمن المعاناة، معاناة الكتابة والإبداع، وسبر الخفايا الكامنة في النص، وتقص للمساحات المفتوحة، التي تحمل في طياتها مزيداً من التأويل، وكثير من دلالات النص لم تقل بعد، وإذا قيل بعضها فإنه قيل بشكل غامض، كما يرى (إمبرتو إيكو)[5]، ولذا يحسن بالقارئ الفطن الاستجابة للنداء الكامن في النص.

ولكن لابُدّ أن نتساءل: هل بإمكان أي قراءة الدخول إلى عالم النص ؟ وللإجابة عن هذا التساؤل نجد أن الباحثين يعتقدون بأن هنالك طريقتين لمعالجة هذا الأمر:

---

[3] روبرت هولب، نظرية التلقي، مقدمة نقدية، ترجمة د.عز الدين إسماعيل، مطبعة النادي الأدبي الثقافي
بجدة، 1415 هـ، 1994 م، ص 126.

[4] تيري إيغلتون، نظرية الأدب، ترجمة ثائر ديب، وزارة الثقافة، دمشق 1995،ص136.

[5] إمبرتو إيكو، التأويل والتأويل المفرط، ترجمة ناصر الحلواني، الهيئة العامة لقصور الثقافة ط1 آب، أغسطس، 1996، ص53.

الطريقة الأولى تتعلق بكيفية القراءة، وأما الثانية فتتركز على معنى النص ذاته، فتحليل النص يعني أن نتساءل عن كيفية قراءة النص. وإذا كانت ((دراسة كيفية القراءة تضفي على نظريات التلقي بعضاً من صفاتها المميزة، فإن البحث في محتوى القراءة يؤدي في أغلب الأحيان إلى التساؤل عن معنى النص، أو عن معانيه))[6]، وهذا يؤدي بدوره إلى مواقف متباينة للمناهج النقدية، وينجم عن ذلك تداخل في أدواتها، مما يجعل تحديد منطلقات القراءة أمراً لا محيد عنه.

ونجد أن لزاماً علينا أن نشير، قبل الانتقال إلى الدعامة الثانية، إلى أن تداخلاً ما قد حصل في تحديد هذه المفهوم، وذلك حين عدّت معاجم المصطلحات الأدبية والنقدية القراءة ضرباً من تأويل النص، ونظرت إلى التأويل على أنه ((تفسير ما في النص من غموض))[7]، وكذلك كان الأمر في اصطلاحات المعجميين العرب الذين عنوا بالقراءة: ((التفسير، والتبليغ، والفهم))[8]، ولم تأخذ دلالات اصطلاحية مطابقة لما نجده في الدراسات المعاصرة، وهذا عائد إلى طبيعة تطور المفهومات، وتعدد المصطلحات وتنوعها.

ب – ((النفسية)):

---

[6] – د. حسن مصطفى سحلول، نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياه، اتحاد الكتاب العرب دمشق، 2001، ص9.

[7] د. مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، 1979 ص 50 .

[8] ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة قرأ، وتاج العروس، الزبيدي، مادة قرأ.

[9]سيغموند فرويد، دوستويفسكي وجريمة قتل الأب، ترجمة د. شاكر عبد الحميد، بحث مثبت في كتاب علم نفس الإبداع، دار غريب القاهرة، 1995، ص 44 .

مع ظهور مصطلح ((القراءة))، بمفهوماته المتعـددة، صـار بالإمكـان الحـديث ــ منهجياًــ عن الطرف الذي يتعرف إلى النص، أي المتلقي، وأصبح القارئ مـشاركاً في إنتاج النص،انطلاقاً من تحليله وسبره وتأويله.

وإذا كان الأثر السيكولوجي بارزاً في التلقي، فإن القراءة النفسية تستشرف الجوانـب المكونة للنص، من قضايا اللاشعور والكبت والغرائز والموضوعات النفسية الأخرى، مما يعني أن تحليل النص نفسياً هو قراءة تعيده إلى تكوينـه النفـسي. وصـحيح أن القراءة النفسية تلامس المستوى النفسي، وتغفل بعض المستويات الأخرى ؛ إلا أن هذه الملامسة قائمة أساساً على جملة من المنظومات النفسية المتقنة، وهي عملية تـستدعي الاحتراز والدقة المناسبتين.

ولا يستطيع القارئ النفسي أن يخمن مسبقاً المؤثرات المرجعية التي يمكن أن يعتمـد عليها في أثناء القراءة ؛ إذ إن اللاوعي يقوم بالقراءة اعتماداً على نفسه مـن جهـة، واستناداً إلى خبرات متقنة من جهة أخرى، فيدخل إلى عالم النص الذي هو نسيج من الرموز والدلالات المتمركزة في لاشعوره، وفي نظام من التكثيف اللغـوي المكـون للنص.

إن العلاقة بين التحليل النفسي والأدب علاقة عضوية، باعتبار أن التحليـل النفـسي للأدب يكشف عن اللاوعي في الأخير، وأن الأدب يكشف عن المكونـات النفـسية، وكلاهما يفيد من الآخر، ويسهم في فهم العلاقات الناشئة بينهما منذ لحظة الإبداع.

ومما لاشك فيه أن الأهم في تلك العلاقة هي الصلات الخفية بين الرغبات والـدوافع اللاشعورية واللغة، ولهذا غدت المقولات النفسية التي طرحها(فرويد) أساساً للتحليـل النفسي، وذلك استناداً إلى فرضياته التي رأى فيها أن الرغبات المكبوتة أساسـية فـي تكوين شخصية الأديب، وظن أن (عقدة أوديب) ــ مثلاً ــ هي منطلق مهم في فهـم الأعمال الإبداعية، ورآها مبطنة في ثلاثة أعمال أدبية خالدة هي:

((الملك أوديب)) لـ ((سوفوكليس)) و((هاملت)) لـــ ((شكسبير)) و((الأخــوة كارامازوف)) لــ ((دوستويفسكي))، وتتبع قضايا اللاشــعورفي الإبــداع محــاولاً الكشف عن شخصية المؤلف في الوقت نفسه[9].

وقد فتح التحليل النفسي النوافذ لدراسة الحلم والسيرورات((النفسية اللاشعورية))[10]، إضافة إلى قضايا الليبيدو والنرجسية، وغيرها من الموضوعات التي طورها((آدلر)) و((يونغ)) في التحليل النفسي، مما أسهم في تفعيل منطلقات القراءة السيكولوجية.

وتطورت المقولات النفسية وجاوزت تحليل الشخصية الأدبية، ودخلت في ميدان مــا يسمى ((لاشعور النص))[11]، واستجدت مقولات ضافية، كمقولات ((جاك لاكان)) الذي يعد من أبرز مطوري التحليل النفسي الفرويدي، وذلك حين أقـــام الــصلات بــين الــــدال والمدلول والعلوم اللسانية من جهة، وبين أنساق ما قبل الشعوري من جهة أخرى، وذلك في مقولته التي اهتم فيها بالدلالات الرمزية وتبادلاتهــا فــي الــنص، وسماها ((سلسلة الدال والمدلول))[12]، وهي تلتقي مع أدوات الــسيميائية فــي قــضية الإشارات والعلامات النصية.

وقد أسهمت العلوم النفسية في تفعيل دراسة الأدب وتحليلــه، وهــي ـ بــدورها ـ إضافات مهمة على صعيد تتبع صيرورة النقد النفسي، ومن أبرزها: علم النفس العام، وعلم النفس الأدبي، وعلم نفس الأدب، وعلم نفس الإبداع، وعلم نفس اللغــة وغيــر ذلك.

---

[10] د. كارل إبراهام، التحليل النفسي والثقافة، تر:وجيه أسعد، وزارة الثقافة، دمشق 1998، ص 201

[11] جان بيلمان نويل، التحليل النفسي والأدب، تر:حسن المودن، المجلس الأعلى للثقافــة،القاهرة 1997 ص 10 .

[12] د. عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار المعارف بمصر، ط1، 1963، ص1.

إن المتتبع لمسيرة الاتجاه النفسي في النقد الأدبي ؛ يرى أنه يتألف من أقانيم متنوعة، واهتمامات متعددة، إذ إنه استهدف تحليل الشخصيات في بادئ الأمر، ثم تناول علاقة شخصية الأديب بإبداعه، وانتقل بعد ذلك إلى ((استجابة القارئ للنص وتفضيلاته الأدبية))[13]، وتبعتها الدراسات السيكولوجية للأجناس الأدبية ذاتها.

ويمكن أن نحدد ترسيمة الدراسات النفسية في النقد الأدبي العربي الحديث بما يلي:

1- دراسة الشخصيات الأدبية ومنها: الشخصيات التراثية (كدراسات المازني والعقاد والنويهي وغيرهم)، والشخصيات المعاصرة (كدراسات أنور المعداوي،ومحي الدين صبحي،وخريستو نجم وآخرين)، والشخصيات الفنية المتخيلة في النص الأدبي (كدراسات عز الدين إسماعيل،وجورج طرابيشي،وحميد الحمداني وغيرهم).

2ـ دراسة سيكولوجية الإبداع الأدبي في الشعر والرواية والقصة والمسرح، كما في بحوث (حامد عبد القادر،ومصطفى سويف، وسامي الدروبي، ومصري عبد الحميد حنورة، وشاكر عبد الحميد وغيرهم).

3ـ تفسير الظواهر الفنية والمعنوية أمثال: الطلل، والنسيب، والغزل العذري، والحلم،والرمز، والأسطورة، و ذلك في دراسات (عز الدين إسماعيل، ويوسف سامي اليوسف، وعلي البطل، ومصطفى ناصف، وشاكر عبد الحميد وغيرهم).

---

13 جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي، إعداد وترجمة عبد المقصود عبد الكريم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 1999، ص 9 .

4ــ دراسة النص الأدبي وتحليله تحليلاً نفسياً، وهذا النوع من الدراسة هو مايمكن أن نسميه ((القراءة النفسية)) [14]، مما يعني أن الترسيمات الثلاث الأولى ليست في خطة هذا البحث،لأنها تحتاج إلى بحوث مستقلة في المفهوم والاصطلاح.

المواجهة النفسية للنص الأدبي:

تستند((القراءة))إلى أصول معرفية عميقة، وتبني منطلقاتها على أساس من المفهومات والتصورات التي تخدم الهدف، وتستقطب ((جميع التصورات للكون الفكري عن القارئ وتحدد أدواتها الإجرائية عند مواجهة النص، من خلال فعل يتجاوز الشرح والتفسير والتأثير))[15]، ليصل إلى سبر عميق للنص.

وتتعدد الوظائف التي ينهض بها النص، فقد ((ينجز النص أكثر من وظيفة))[16]، وربما أنجز وفرة من الوظائف، والوظيفة النفسية هي من الوظائف الضافية، نظراً للعلاقة المميزة القائمة بين الأدب وعلم النفس، وهي علاقة تقرها العلوم الإنسانية، فعلم النفس أقرب العلوم إلى الأدب، وقد يكون من العسير الفصل بينهما، لأن النفس ((تصنع الأدب وكذلك يصنع الأدب النفس (...)، والنفس التي تتلقى الحياة لتصنع الأدب هي النفس التي تتلقى الأدب لتصنع الحياة)[17]. وأقر علماء النفس بأهمية التعرف إلى القيم المختزنة لدى المبدعين، والكيفية التي يبدع فيها نصوصه الأدبية، والنص الأدبي استجابة لمؤثرات خاصة، وهو يصدر عن قوى نفسية فعالة، وثبت أن

---

14 د. محمد فتوح أحمد، الروافد المستطرقة، مطبوعات جامعة الكويت، 1998، ص6 .

15 د. شاكر عبد الحميد، التفضيل الجمالي، دراسة في سيكولوجية التذوق الفني، عالم المعرفة، الكويت، عدد 267، مارس، 2001، ص 318 .

16 حبيب مونسي، القراءة والحداثة، مقاربة الكائن والممكن في القراءة العربية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص 80 .

17 د. عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار المعارف بمصر، ط1، 1963، ص1.

((لاتعارض بين علم النفس والأدب، فعلم النفس علم بالكليات كسائر العلـوم، والأدب معرفة بالمفردات كسائر الفنون))[18].

وإذا كانت القراءة النفسية تعنى بالوظيفة النفسية للنص ؛ فإنها تبني مقولاتهـا علـى السياق، والنص المقروء ــ نفسياًــ هو الذي يحقق قصدية صاحبه، وذلك فيما يمتلـك من التعبير والدلالات، وهي دلالات ((يتعين على القراءات النقدية تحديـد مكوناتهـا وتفسيرها))[19]، وهذا يفضي إلى القول بأن القراءة النفسية تتضمن: التحليل والتأويـل وتفسير السياق .

وتسعى القراءة النفسية إلى مواجهة النص بافتراضات معرفية، انسجاماً مـع طبيعـة انتماءاتها العلمية، بهدف الوصول إلى تصور نفسي للنص الأدبي، وهي في ذلك غاية التنظير ((الذي يريد أن يصل إليه، انطلاقاً من معرفة النص من داخله))[20].

إن فهم النص نفسياً هو فهم خاص لقراءة خاصة، وهذا الفهم قوامـه الغـوص فـي مكنونات النص، وعلى هذا الأساس تكون القراءة صعبة، وتحتاج إلى خبرة ومعرفة.

ومن أجل أن يكون النص مكتمل الفهم، بين المبدع والمتلقي، لابد أن يقـوم المحلـل النفسي بعمليات التحليل والتفسير والتأويل، فهو ((شريك في تأليف نـص مـا يقـوم بتحليله أو قراءته، ومن ثم فهو ــ كالقارئ ــ ليس مجرد ملاحظ حيادي))[21].

والملاحظ أن المحللين النفسيين يظنون أن هنالك أشياء لم تُقل، وهي كامنة في اللغـة، وأن للنص لاشعوره، ويقررون أنه إذا كان المعنى فائضاً في النص، فإنه يوجد فـي

---

18 د. سامي الدروبي، علم النفس والأدب، دار المعارف بمصر، 1971، ص8 .

19 د. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت ع 164، 1992، ص 17.

20 د. يمنى العيد، في معرفة النص، ط3، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1985، ص17.

21 د. عز الدين إسماعيل، النقد الأدبي إلى أين ؟ أعمال المؤتمر الدولي الأول للنقد الأدبـي، القـاهرة 1997 ص39

مكان ما نقصان في الوعي، والحدث الأدبي ((لايحيا إلا إذا انطوى في نفسه على جزء من انعدام الوعي، أو من اللاوعي نفسه))[22].

وإذا كنا نتفق مع الباحثين النفسيين في هذا الرأي ؛ واعتقدنا بان المخفي في النص أهم من المعلن، وأن العمل الأدبي يحتوي على جملة من المرموزات، فإن علاقات أخرى تنهض متباينة في دلالاتها النفسية، والتحليل النفسي للنص قادر على كشفها.

ويفضي هذا الرأي إلى الاعتراف بأن قراءة الباحث النفسي تعني ((أنه يرى بين الكلمات أنظمة علامات))[23]، مما يظهر أهمية القراءة النفسية في دراستها لغة النص وتراكيبه ومفرداته وعباراته، في أثناء بحثها عن الدلالات المستترة في السياق، لأن التعامل مع النص ((وفق منظور سيكولوجي، يمنحنا قراءة خاصة عبر صياغته الفنية التي تحمل في ذاتها رؤية لعالم الإنسان الخفي))[24].

وإذا كانت القراءة النفسية، في خطة هذا البحث، تتكون من دعامتين نفسيتين تمت الإشارة إليهما؛ فإنها تندغم ــ في الوقت نفسه ــ في مناهج نقدية أخرى، وتمتح منها بعض أدواتها،كالبنيوية والسيميائية والسيسيولوجية، وتقيم معها صلات في استخدام الأسس والمنطلقات ومن أمثلة ذلك:

آــ تتصل بالبنيوية من حيث البحث عن الرغبات الكامنة في النص، وقد تحدث رولان بارت عن اللذة المتأتية من النص، وطلب من الأدباء أن يعطوه دليلاً على

[22] جان بيلمان نويل، التحليل النفسي والأدب، ترجمة حسن المودن، المجلس الأعلى للثقافة، 1997، ط1، ص 10 .

[23] مارسيل ماريني، النقد التحليلي النفسي، من مرجع عام بعنوان: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، مجموعة من الكتاب، ترجمة د. رضوان ظاظا، مراجعة د. المنصف الشوفي، عالم المعرفة، الكويت، عدد 221، ص 99.

[24] د. عبد القادر فيدوح، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي،اتحاد الكتاب العرب، 1992، ص11 .

رغبة النص له بقوله: ((إن هذا الدليل موجود، إنه الكتابة (...)،وأن الكتابة تكمن في هذا: علم متعة الكلام))[25]، وهذا الرأي يوافق رأي النفسيين.

ب ـ وتتعالق مع اللسانية في تتبعها قضايا الدال والمدلول في لغة النص، كما في مقولات جاك لاكان التي رأى فيه أن هنالك ((وظيفة تواصلية للكلام))[26]، وأن المحلل النفسي قادر على تحديد تلك الوظيفة، شأنه في ذلك شأن اللغويين.

ج ـ وتلتقي القراءة النفسية بالسيميائية من حيث طريقة تحليل النص وتأويله ؛ فالنفسيون ينظرون إلى التحليل النفسي للنص بوصفه هدفا إلى الفهم، ويرون أن ((التحليل النفسي يعمق فهمنا للعمل الإبداعي))[27]، ويعتقد السيميائيون أن النص شبكة من الثغرات يقوم القارئ بفكها، كفعل الصيدلي في قراءة وصفة طبية مشفرة، وهذا ما يجعلهم يلحون ـ كالنفسيين ـ على ((مشاركة القارئ الفعالة لاكتمال النص))[28].

د ـ وتأخذ القراءة النفسية من المنهج السيسيولوجي بعض أدواته، وهذا ما نلاحظه في تتبع تفاعلات النص مع شخصية مؤلفه، و التركيز على انعكاس الواقع المعيش على خفايا النص، كما في مقولات (كولد مان) التي رأى فيها أن الإبداع انعكاس للبنى الذهنية عند المؤلف[29]. خلاصة ما نريد قوله: إن القراءة النفسية ليست معزولة عن غيرها من المناهج النقدية الأخرى ؛ وبل هي متفاعلة

---

[25] رولان بارت، لذة النص، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء القومي، حلب 1993، ص 27.

[26] جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي، ورد، ص 141.

[27] د. فرج أحمد فرج، التحليل النفسي و القصة القصيرة، و مجلة فصول، المجلد الثاني العدد الرابع، 1982، ص 171 .

[28] روبرت شولز، السيمياء و التأويل، ترجمة سعيد الغانمي،المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 1994، ص 74

[29] د. عمر الطالب، مناهج الدراسات الأدبية الحديثة، دار اليسر، الدار البيضاء، 1988، ص 207.

معها، وصحيح أن لكل قراءة هدفاً مميزاً إلا أن اندغام الأدوات فيما بينها أمـــر تفرضه طبيعة التقصي وهدف البحث. وهكذا صار بإمكاننا أن نحدد مـــستويات المواجهة للنص الأدبي، في خطة ((القراءة النفسية))، وذلـــك بالاســـتناد إلـــى سيرورة الاتجاه النفسي في أثناء تعامله مع قضايا الأدب،كما أوضحنا سابقاً،وهذه المستويات تنتظم في تيارين رئيسيين، الأول تفـــسير الـــسياق النفـــسي للـــنص، والثاني: التحليل النفسي للنص، وهذان التياران متفاعلان فيما بينهما، وينهـــضان بالغاية البحثية المنشودة، وهذا ما سيتوضح في التقصي والتطبيق والأمثلة.

القراءة و تفسير السياق النفسي للنص:

يكوّن النص جملة من السياقات التاريخية والاجتماعية والنفـــسية، وتـــستطيع الأدوات النقدية المتقنة تحديد طبيعة سياقه، و كذلك دلالات رموزه ونظامه اللغوي، مما يعنـــي أن النص الأدبي خاضع للاحتمالات و ليس شيئاً ساكناً.

وينظر إلى السياق النفسي من منطلق معرفي، والعلم الذي يساعدنا على ذلك هو علـــم النفس، انطلاقا من الأدوات النفسية و مقولات المنظرين النفسيين الـــذين يـــرون أن " مجال هذا العلم يمكن أن يوصف بأنه يتصل بحقول الوظائف النفسية الأشـــد تركيبـــاً وسمواً، مثل الفهم والكلام والتفكير والتخطيط وحل المشكلات المعقدة "[30].

وربما تكون الملاحظات المباشرة للنص واحدة من مصادر فهم السياق النفسي، إذ إن معرفة القارئ بالنص كفيلة بإنشاء صياغة نفسية جديدة له.

ويتم ذلك في عمليات سبر لمستويات الوعي وطبيعة الأبنية اللغويـــة الماثلـــة فـــي لا شعور النص، واكتشاف مفهومات مغايرة لما هو ظاهر فيه.

---

[30] د. صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، ورد، ص 245.

ولعل التداعي في صياغة السياق نفسياً هو أهم تجليات القراءة السياقية، وهذا ما يتمثل في قراءة ما هو مبطن في النص، و تصبح العمليات النفسية التي يثيرها التداعي ذوات نظم و دلالات تتوضح في الاستدعاء المعرفي للسياق.

إن القراءة النفسية لسياق النص تساعد صاحبها في تحقيق التفاعل بين متلقي النص وقارئه على أساس مبدأ القصدية، وبذلك تصبح تجربتنا في فهم النص أكثر غنىً، ويغدو النص المقروء أكثر دلالة مما كان سابقاً، الأمر الذي يؤكد أهمية " السياق النفسي الذي يتم فيه إنتاج النص و فهمه وإعادة تكوينه لدى المتلقي، مما يجعل المشكلة الجوهرية التي يتركز فيها البحث هي تأويل النصوص"[31].

والقراءة بهذا التصور وسيلة إلى مزيد من النشاط السياقي ؛ وهي مرهونة باستجابة القارئ، وقدرته على كشف مكنونات السياق، وإقامة التصورات الاحتمالية له، إذ إن القارئ " يضفي على النص أبعاداً جديدة ربما لا يكون لها وجود في النص"[32]، ويرمي إلى احتواء النص والسيطرة عليه، وهذه لا تتم إلا بقارئ خاص ذي ذخيرة غنية تعادل السياق المنشود في النص.

وإذا كنا نتعامل مع النص من الوجهة النفسية، فإن هذا يعني أن النص يحوي قيماً نفسيةً كامنة، وهو مركز لتلك القيم، ولذلك تأخذ عملية قراءة السياق أبعاداً من التخمين والتأويل. وللنص الأدبي أشكاله و تراكيبه، وله سياقه " العملي والإدراكي والنفسي والتداولي والثقافي"[33]، وله جهتا الاستقبال والتلقي، بوصفهما عمليتين ضروريتين لاكتمال تحققه فنياً.

---

31 د. صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2002،ص133 .

32 د. نبيلة إبراهيم، القارئ في النص، نظرية التأثير و الاتصال، مجلة فصول ا لمجلد الخامس، العدد الأول، 1984، ص 120 .

33 د. حاتم الصكر، ترويض النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص32.

والملاحظ أن القراءة النفسية تتغاضى عن تلك الوظيفة الفنية ؛ والسبب في ذلك أنها وضعت نفسها إزاء مهمة مختلفة، هي من نوع التأويل و التفسير والسبر لما هو كامن في النص، و نذرت نفسها لمهمة صعبة.

قدمت قراءة عز الدين إسماعيل لقصيدة عبده بدوي سبراً للسياق النفسي للنص، وشكلت البداية الأهم لهذا النوع من التقصي النفسي في النقد الأدبي العربي، وهي قراءة اهتمت بالنص من داخله، وكان النص الوسيلة الممكنة في عملية التلقي والبحث.

قال الشاعر المذكور في قصيدة بعنوان " ثنائية ريفية ":

الحب فيما طرزت كفاي في الحقل الكبير
و قد كان أمس حكاية تُروى و أشواقاً تدور
و اليوم صار حديقة تلقى الغدير و تستدير
حبي له جذر، له ساق، له ثمرٌ منير

و قرأ الباحث إسماعيل سياقها النفسي فوجدها قابلة للتأويل النفسي من حيث اللاشعور الكامن في بنية الألفاظ و المفردات، و رأى أن القصيدة ذات تراكيب نفسية دقيقة، ففي قول الشاعر " وافى الحصاد " يعني أن امرأة الشاعر حامل، و أن حملها في أيامه الأخيرة، و دليله في ذلك السياق الذي يحمله قول الشاعر، على لسان الرجل دون أن يصرح به في النص، أنا لا أراك، رؤية الرجل للمرأة، فبيننا سد من الثمر المنير، فالثمر هو الجنين المنتظر، و هو الذي يمنع من اللقاء و أن تركيبة الحقل الكبير والثمر والبذور هي ذوات " دلالات فرويدية "[34].

وهذا يعني أن الناقد اعتمد على السياق في قراءة النص، و استفاد من الإشارات التي اشتمل عليها النص، كالدوافع و الغرائز و الطاقات، فعزز قناعته بأطروحات فرويد

---

[34] د. عزالدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ورد، ص 224.

التي أكد فيها أن " الطاقات هي أساس الوظائف التي نسميها حياتنا النفسية "[35] مما يعني أن قراءة سياق النص هي محاولة مهمة يقوم بها الناقد إسماعيل لإضاءة الجوانب الغامضة، و ليس كما رأى أحدهم ــ في رأينا ــ أن الناقد إسماعيل قد " تعسف و تطرف في رد المشاعر كلها إلى الدوافع الجنسية حتى لو تكلف في تفسيرها"[36].

فالقضية ليست قضية تعسف و تطرف، بل هي تجلية لغموض ما، و افترض الباحث أن القراءة النفسية للنص تجلي ذلك الغموض، فقام بإسقاط أدوات المنهج النفسي، معتقداً أنه قادر على تقديم سبر جديد لسياق النص.

و ليس مستهجناً أن ينهج الناقد القراءة التي يرتأيها مناسبة، فمن المعروف أنه حين " يتبنى القارئ النص يجعله تعبيراً عما يختلج في نفسه و ذاته "[37]، و صحيح أننا لا نستطيع أن نجزم بأن هذه القراءة هي الأنسب، إلا أن النص قائم على التأويل، و هو حمّال أوجه و ذو سياقات متعددة، و أما قول المعترض" و قدم لنا عز الدين إسماعيل خليطاً من علم النفس والأدب يصعب تصنيفه ضمن أي منها"[38]؛ فإنه مستند إلى حكم أطلقه ــ سابقاً ــ باحث آخر ذكر فيه أن الناقد إسماعيل " انتحل هوية عالم النفس والنتيجة أننا نفتقدهما معاً "[39].

---

[35] – سيغموند فرويد، الموجز في التحليل النفسي، ترجمة عن الألمانية د. سامي محمود علي وعبد السلام القفاش، مراجعة د. مصطفى زيور، دار المعارف. بمصر، ط4، 1998 .

[36] د. حاتم الصكر، ترويض النص، ورد، ص155 .

[37] د. سيزا قاسم، القارئ و النص، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002، ص 106 .

[38] حاتم الصكر، ترويض النص، ورد، ص 155.

[39] الولي بن محمد، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي و النقدي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ــ بيروت، ط 1، 1990، ص 167 .

ولا نعتقد أن الأمر كذلك، إذ إنه ليس مطلوباً من الناقد أن يكون عالم نفس كي يسمح له أن يمارس أدوات التحليل النفسي، صحيح أن هنالك إشكالية في استخدام معطيات العلوم النفسية، فعالم النفس ليس ناقداً للأدب، كما أن ناقد الأدب ليس عالم نفس إلا أن هذه الإشكالية غير مقتصرة على المنهج النفسي وحده، بل نجدها في معظم المناهج التي تتبنى أدوات فكرية و آيديولوجية و اجتماعية و غير ذلك.

وإذا كانت القراءة النفسية قائمة على احتمالات السياق و تأويلات النص، فهل تتعدد الآراء النقدية بتعدد فهم السياق النفسي للنص ؟ سؤال مهم يواجهنا في أثناء تتبعنا لهذا النوع من النقد.

إننا نواجه في القراءة النفسية أمثلة لهذا الذي نتساءل عنه، و يمكننا أن نورد مثالاً يدل على ما نذهب إليه، إذ نعثر على آراء متباينة في مسألة واحدة، و ذلك عائد إلى تباين في فهم السياق و تفسيره.

فقد رأى الناقد عز الدين إسماعيل أن رواية السراب لنجيب محفوظ تعالج عقدة نفسية، هي "عقدة أوديب" الكامنة في شخصية البطل الرئيس في الرواية و اسمه " كامل رؤبة" وأن الكاتب نجيب محفوظ عرضها ممثلة في موقف كامل رؤبة من أبيه، وفي علاقته بأمه، و لكنّ الناقد إسماعيل يفهم من سياق الرواية، و تتطور الأحداث، وتصرفات أبطالها، أن " عقدة أوديب "غير كافية لحل تلك الألغاز، و إنما هنالك عقدة أخرى يقترح أن تكون بديلاً لها ألا وهي "عقدة أورست"، و أورست هذا قتل أمه وعشيقها ولاحظ الناقد أن حب كامل لأمه و تعلقه الشديد بها، منعاه من ممارسة" فعل الحياة " مع زوجه، إذ إن صورة الأم استقرت في لا شعوره، ونظر إلى زوجه بمنظورالأم البديلة في عقله الباطن، لأن " استبدال الأم بزوجة هو تجسيم للأم في الوقت نفسه"[40].

---

[40] د. عزالدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ورد، ص 264.

واعتقد الباحث إسماعيل أن نجيب محفوظ أقحم إرهاصات عقدة أوديب في الروايــة، ولم تكن هنالك ضرورة نفسية لتمثل تلك العقدة، وأن ما دفع الباحث إلى مثــل هــذا الحكم هو قراءته لسياق الرواية، وتفسيره تفسيراً مختلفاً لتفكيــر الكاتــب محفــوظ، ولاحظ أن كامل رؤبة تربى بعيداً عن أبيه، و لم يكن لأبيه أي دور في حياته، و لــذا كان من الممكن أن يستعيض الكاتب بالوفاة الطبيعية للأب عوضاً عن التفكير بقتلــه، وأنه بوفاته الطبيعية صار بإمكانه " حل أزمته في الزواج من رباب بما يرثــه مــن مال"[41].

وقرأ الناقد جورج طرابيشي الرواية نفسها، وفسرها على نحو مختلف، فأكد أوديبيــة العقدة، مخالفاً عز الدين إسماعيل، إلا أنه انتقد البناء النفسي و الفني للرواية، و اعتقد أن نجيب محفوظ تخبط في مقولاته النفسية وأنه تعامل مع المعطيــات النفــسية فــي الرواية من خلال " التجريد و العمومية "[42]، وقدّم قراءة أوديبية مفصلة للرواية، ورأى أن أم بطل الرواية هي أم أوديبية نموذجية، وأن عقدة كامل رؤبة تجلت فــي أمــرين معاً: كرهه لأبيه، و غياب الأب من حياته، والأب رمز لغياب " الأنا الأعلى " الأمــر الذي كان سبباً في إخفاقه، و كانت نفسه " مرتعاً للعقد النفسية "[43].

وإذا كان المجال لا يتسع لمناقشة هذه الآراء، فإننا لسنا متفقــين مــع رأي الباحــث طرابيشي، لأن نجيب محفوظ عُرف بقدرته على رسم السياق النفسي للرواية، وهــو على اطلاع كبير بعلم النفس و إسقاطاته في الأعمال الفنية.

و رأى الباحث يحيى الرخاوي أن رواية السراب تحتمل قراءة أكثــر اجتهــاداً مــن القراءات السابقة، و أن القضية في العقدة هي صراع لتحقيق الاستقلال الشخــصي، فضلاً عن كينونة نفسية مستقلة كان قد رسمها الكاتب نجيب محفــوظ، و ذلــك عــن

---

41 نفسه، ص 269 .

42 جورج طرابيشي، الأدب من الداخل، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1978،ص 166 .

43 نفسه ص 190 .

طريق السيرورة النفسية لكامل رؤية، وأن الناقد إسماعيل ــ برأي الرخاوي ــ لم يكن بحاجة إلى ذكر عقدة أخرى للرواية، أي عقدة " أورست" وأن رؤية إسماعيل " لم تكتمل، ربما لغلبة الموقف الاستقطابي وهو موقف أخلاقي أحادي البعد"[44]، وطالبه بإعادة القراءة والتبصر بالنص، و تعديل الصياغة ما ظل النص مثيراً مولداً. و اعتقد الباحث الرخاوي، في دراسة أخرى، أن رواية السراب هي " رواية تحليلية نفسية بوجه خاص "[45]، وتحتاج إلى دراسة متأنية، نظراً لما فيها من المواقف المهمة، مما يؤكد أن فهم سياق النص يؤدي إلى قراءات مختلفة وإن كانت مؤسسة على منهج واحد، والعبرة تكون في تفسير السياق وفهم طبيعة النص. ويكتشف القارئ النفسي سمات نفسية في سياق النص، وهي سمات ربما لا تكون ماثلة إلا في عيني الناقد النفسي، بمعنى أن ناقداً آخر يفسرها تفسيراً آخر، وهذا يؤيد وجهة النظر القائلة بأهمية الأدوات المستخدمة في قراءة النص والإخلاص لتلك الأدوات.

رأى الباحث خريستونجم في قول نزار قباني:

خطيئتي الكبيرة
أني يا بحرية العينين يا أميره
أحب كالأطفال
وأكتب الشعر على طريقة الأطفال

---

44 د. يحيى الرخاوي، إشكالية العلوم النفسية و النقد الأدبي، فصول، مجلد 4، عدد 1983،1، ص50 .

45 قراءات في نجيب محفوظ، يحيى الرخاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1992،ص120 .

إن تفسير هذا الحب يكشف "حالة نرجسية يرشح منها التسلط و التملك والسادية، وكلها نزعات تثبت الراشد عند طور طفولي نهم لا يشبع ولا يرتوي"[46].

و كما نلاحظ، كان من الممكن أن يفهم من سياق النص معنى آخر، وهو البراءة التي تلازم الطفولة، و أن الحب عند الأطفال أكثر ديمومة و أشد إعجاباً بالمحب ؛ إلا أن الناقد نجم فسره تفسيراً نفسياً، انسجاماً مع القراءة التي يقوم بها، فأعاده إلى علامات نرجسية، أي إلى الطاقة الليبيدية التي تسم حالات التعبير بسماتها، و تُدخَر في لا شعور المرء، ثم تظهر في أويقات مناسبة، كلحظات الإبداع مثلاً، و تسمى " هذه الحالة بالنرجسية الأولية المطلقة "[47]، لتأخذ بعديها النفسي والجسدي وفق مزايا النرجسية المعروفة في استقراءات النفسيين.

و إذا كان التداعي أساساً مهماً في تفسير النص، كما أشرنا سابقاً ؛ فإن صياغة السياق الصياغة النفسية المطلوبة هي أبرز غايات القراءة النفسية. وليس الأمر تماهياً من جانب القارئ النفسي، بل هو الانسجام مع أدوات القراءة ذاتها، إذ إن القارئ النفسي لا يكتفي باستنطاق الدلالات الكامنة في النص، بل يستنطق تأويلاتها، ويتتبع دوافعها، ويعيدها إلى مرجعياتها اللاشعورية في الحياة الباطنية، وقضايا الغرائز واللاوعي الجمعي وغير ذلك، ثم يحاول الكشف عن الصلات التي تربط بين تلك الدلالات والعناصر الأخرى المكونة لسياق النص.

وربما يظن القارئ النفسي أن هذا النص أو ذاك يقدم له مادة نفسية غنية، طالما بحث عنها في أثناء تتبعه لقضايا الإبداع و الفن، و يغدو تأويله له شكلاً من أشكال فهم المغزى العام للنص من منظور نفسي، ويقوم على الدلالات التي عثر عليها في النص، وعمل على تأويلها التأويل المناسب في عمليتي الإسقاط والإحالة.

---

[46] د. خريستونجم، النرجسية في أدب نزار قباني، دار الرائد العربي، بيروت، ط1 1983، ص265 .
[47] سيغموند فرويد، الموجز في التحليل النفسي، ورد، ص 20 .

و نشير هنا إلى قراءة الباحث فهد عكام لقصيدة الشاعرة الأندلسية حمدة بنت زياد المؤدب التي تقول فيها:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ	سقاه مضاعفُ الغيثِ العميمِ
حللنا دوحه فحنا علينا	حنو المرضعات على الفطيمِ
فأرشفنا على ظمأ زلالاً	ألذ من المدامةِ للنديمِ
يصدُّ الشمس أنى واجهتنا	فيحجبها و يأذن للنسيمِ

لقد نظر الباحث إلى السياق، و لاحظ وحدته النظائرية، فاستكنه المكبوت فيه، معتقداً أن خفاياه " تشف عن غريزة حب البقاء "[48]، و هي تتجلى في صورة الحديث عن الرضيع المفطوم عن ثدي أمه، وذلك في تفسيره للبيت الثاني، انطلاقاً من الدلالات التي يحملها السياق (حنا علينا) و(حنو المرضعات)، فالأم تحنو على وليدها وقت الرضاع، واللذة التي يشعر بها الطفل في أثناء الرضاع، هي لذة غريزية بالمعنى الفرويدي، لأنها تدل على الامتلاء والارتواء، و ربطها الباحث بغريزة البقاء.

وكذلك فعل في البيت الثالث حين رأى في "فأرشفنا على ظمأ زلالاً" إيحاءات لظمأ عظيم، وأعاد الظمأ إلى ظمأ جنسي، و ليس إلى الماء، ظناً منه أن عبارة (ألذ من المدامة للنديم) ما هي إلا " الرغبة التي تعتلج في أعماق اللاشعور، و ظهور أفعل التفضيل (ألذ) في التعبير دليل على وجود هذه اللذة في الأعماق المظلمة "[49]، رابطاً بين ظمأ الطفل إلى الحليب وعذابات العاشقين. واعتقد أن العلاقة بين الدوح و الشمس، هي علاقة صراع بين غريزة البقاء وغريزة الموت، وأن انتصار الدوح على الشمس هو انتصار لغريزة البقاء على غريزة الموت، وأن عبارة "أنى واجهتنا" في البيت الرابع توحي " بعدم استقرار الحبيبين في موضع ثابت تحت الدوح، فهما (...)

---

[48] د. فهد عكام، الشعر الأندلسي نصاً وتأويلاً،دار الينابيع، دمشق 1995، ص 67 .

[49] نفسه، ص 67.

في نقلةٍ مستمــــرة، تمنعهمـــا من خلوة محرمـــة "[50]، ممـــا يوحــــي بغلبــــة الأنا الأعــلى علــــى الغرائز المرتبطة باللاشعور. لقد أعاد الناقد سياق النص إلـــى مرجعيات نفسية فرويدية، فتكلم على غريزة البقاء والموت، وهما اللتان تحدث عنهما فرويد في أطروحاته، و ظــنّ أن الحيـــاة قائمـــة علـــى الــصراع بــين (إيـــروس) و(ثاناتوس)،أي حب الحياة وغريزة الموت، وهما غريزتان كامنتان في الكائن الحـــي، ومنها ما يستهدف البقاء، ومنها ما هو دليل الفناء، وكان فرويد أدرج" دوافـــع حفـــظ الذات ودوافع الجنس تحت غريزة التدمير و الموت"[51].

وغاية القراءة النفسية لدى عكام أن يزيل غموض النص بتفسيره، وأن يمنحه إضــــاءة جديدة، تضاف إلى إضاءات المناهج الأخرى، في سبيل كشف الإبداع والموهبة، فلجأ إلى رحاب الفرويدية التي تستخدم الأدوات النفسية لكشف الإبداع "في مجال الوقــوف على سر الموهبة الفنية "[52]، ونهجها المؤيدون لقراءة النصوص و كشــف الموهبـــة والإبداع.

القراءة و التحليل النفسي للنص:

نلاحظ في هذا المفصل من القراءة النفسية أن التحليل يتم من داخل النص، وغالباً مـــا يكون اهتمام المحللين بمكنونات النص وخفاياه أكثر من اهتمامهم بقــصدية مبدعـــه، وهذه قضية مهمة في صيرورة الاتجاه النفسي بشكل عام، إذ إن النص يرسل أطيافـــاً إلى ذهن قارئه ربما لم يكن مؤلفها قاصداً إياها، وكما يـــرى "جـــان بيلمـــان نويـــل"

---

[50] نفسه، ص 6 .

[51] سيغموند فرويد، الموجز في التحليل النفسي، ورد، ص 89 .

[52] سيغموند فرويد، التحليل النفسي والفن، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 2، 1979، ص 74 .

أن"القصيدة تعرف أكثر من الشاعر"[53]. وصحيح أن اللغة أداة التعبير، وهي الوسيلة التي ترسم دلالات النص، إلا أن المهم هو المحتوى، وهو بذلك – أي النص – يشتمل على المعرفة النفسية الكامنة في داخله، مما يدفع بالمحلل إلى مزيد من محاولات استنطاقه و حل رموزه، ويسعى ــ كذلك ــ إلى ما يمكن أن نطلق عليه مجازاً " شفرة النص النفسية " مقابل ما تسعى إليه السيميولوجيا[54]. وفي هذه المسألة نلاحظ التشابه أيضاً بين أدوات النفسيين وأدوات السيميائيين في تحليل النص، و ذلك في أثناء البحث عن علامات دالة في النص، فالسيميائيون يعتقدون أن "العلامة السيميائية هي الوحدة التي تتكون منها الشفرات المختلفة، ثم تنتظم هذه العلامة مع غيرها لتكوين النصوص"[55].

وإذا كان المحلل السيميائي يبحث عن تلك العلامات الناظمة للنص الأدبي، فإن المحلل النفسي يسعى إلى تحليل الكلام في النص، لأن الكلام " هو مادة عمل المحلل،وأن وظيفة المحلل أن يسمع ويتدخل "[56]. ويكون النص – بهذا ــ مجموعة من العمليات النفسية تستند إلى العلاقة الخاصة بين اللغة و اللاشعور، على افتراض أن " اللغة هي الأداة الوحيدة للتحليل النفسي"[57]. لقد قدمت مدرسة فرويد ومدراس التحليل النفسي الأخرى فوائد جمة إلى المهتمين بتحليل النص نفسياً، وكان فرويد تناول النص الأدبي من مستويات ثلاثة هي: شخصية المبدع، والشخصيات الفنية في العمل الأدبي،

[53] جان بيلمان نويل، التحليل النفسي و الأدب، ترجمة حسن المودن، المجلس الأعلى للثقافة، 1997، ط 1 ص 9 .

[54] ينظر توضيحات سيميولوجية موازية لهذا الفهم: د. صلاح فضل، شفرات النص، بحوث سيميولوجية في شعرية النص و القصيد، دار الفكر، القاهرة، 1990.

[55] د. سيزا قاسم، القارئ و النص، ورد، ص 22.

[56] جون فورستر، المحلل النفسي والكلمات، من مرجع عام: جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي، ورد، ص 140.

[57] مالكولم بويى، لا كان والعودة إلى فرويد، من المرجع العام السابق، ص 78.

و النص الإبداعي نفسه، و ليس مستغرباً" أن نلقى عند فرويد مفهوماً للفنان والمبدع و القاص والشاعر، ومفهوماً للأثر وعملياته الإبداعية، ومفهوماً للقراءة والقارئ "[58].

وتتطلب العلاقة الوطيدة بين الأدب وعلم النفس أن يكون النص حاملاً للمواقف النفسية في داخله، ويرى النقاد النفسيون أن "غاية الأدب هي نوع من الكشف والإنارة لبعض المواقف الإنسانية "[59]، ولهذا يطمئن أنصار هذا النوع إلى أهمية ما يقومون به من قراءة للنص، ويسعون إلى تقديم التحليل المناسب لاستيعاب النص، في عملية يتحد فيها القارئ النفسي بالنص.

- يرى الباحث النفسي فرج أحمد فرج، في دراسته قصة [ليلى و الذئب] من المجموعة القصصية لغادة السمان، بيروت، طبعة ثالثة، 1975،أن التحليل النفسي للنص قادر على كشف غموض العمل الإبداعي، شريطة أن يقوم به متخصص خبير، و أن أعمالاً أدبية "لا يمكن بلوغها بغير هذا المنهج"[60]، لذلك سعى إلى تحليلات نفسية لما غمض في النص.

والواقع أن التحليل النفسي شكل من أشكال تأويل النص، و هو معرفة بالمكونات، لأن النص يحمل في طياته مزيداً من الدلالات، وأن الكثير منها "ما لم يُقَل، أو ما قيل بشكل غامض، و ينبغي فهمه فيما وراء أو تحت سطح النص"[61]. وتعامل المحلل مع

---

[58] جان لوي بودري، فرويد و الإبداع، ترجمة موريس أبو ناضر، الفكر العربي المعاصر، بيروت، 1983، عدد 23 ص 126.

[59] ديفدديتش، مناهج النقد الأدبي، ترجمة د. محمد يوسف نجم، مراجعة د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1967، ص 535

[60] د . فرج أحمد فرج، التحليل النفسي للأدب، دراسة لمحتوى قصة ليلى و الذئب، فصول، المجلد الأول، العدد الثاني، يناير 1981، ص 26.

[61] إمبرتو إيكو، التأويل و التأويل المفرط، ترجمة ناصر الحلواني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط1، آب " أغسطس " 1996، ص 53.

النص انطلاقاً من تحليل أحلامه ودلالات رموزه، فليلى ذات، والذئب آخر، مما يدل على جدلية الصراع، أو"جدل الخوف والوحدة والاغتراب "[62].

واستناداً إلى معطيات التحليل النفسي، يبدو الآخر وجهاً من وجوه الذات، مما يعني أن الذئب بمعنى من المعاني، هو ليلى نفسها، وأن فقداناً للتمايز حصل " بين الذات والعالم لقد طغت الذات على العالم، فأصبحنا إزاء وجود خائف "[63]. ولكن ما هو مصدر الخوف؟ سؤال مهم يواجه المحلل، ويراه الباحث فرج كامناً فيما يسمى" الذهان"، لأن الخوف هو شكل من أشكال المرض نفسه، والهذيان مرض عقلي، كما يعرفه علماء النفس، تظهر معالمه حين لا تستطيع الأنا تسوية الصراع الدائر بين الرغبة ونقيضها، فتواجه قسوة الواقع والإحباطات الخارجية، وتقع في دائرة " تصورات خيالية لاأساس لها من الواقع "[64].

ويزيل الباحث ذلك الغموض في القصة، ويرى أن السبب هو إقامة الفتاة العربية " ليلى " في لندن لدراسة الطب، وأن علاقتها بالآخرين كانت علاقة تنافر وكراهية، وليس لها صديقة سوى الجمجمة، إضافة إلى عدد من الدُّمى المشنوقة المتدلية من الجدار خلف المكتبة، وتشير واحدة منها إلى أمها، والثانية إلى أبيها، والثالثة إلى صديقها " فراس". واعتقد الباحث أنه يستطيع التعرف إلى عالم ليلى نفسها، فأمها سيدة مجتمع جميلة وجذابة، وقد عاشت ليلى بعيدة عنها في المدارس الداخلية، بعد انفصال أبيها عن أمها، وهكذا وجدت ليلى نفسها وحيدة، بلا أم ولا أمومة، بلا أب ولا أبوة، ودون منزل أو وطن أو صداقة .

ثم لجأ الباحث إلى تحليل اللغة في النص و العبارات والكلمات، و ذلك لمعرفة ما تحويه من مكنونات نفسية، انسجاماً مع مقولات " جاك لاكان " التي قال فيها إن نسق

---

[62] د . فرج أحمد فرج، التحليل النفسي للأدب، دراسة لمحتوى قصة ليلى و الذئب، ورد، ص 27.

[63] نفسه، ص 28 .

[64] سيغموند فروند، الموجز في التحليل النفسي، ورد، ص 95.

ما قبل الشعوري يمكن أن يمتح من المفهومات اللغوية اللسانية " ليصبح أكثر إقناعا و أكثر مرونة "[65].

واستقرأ فرج الدلالات النفسية في ألفاظ النص وتراكيبه، وأكـــد أن لإطـــلاق ليلـــى لفظـــة "حلويات"على المخزن الذي يبيعها، دون التـسمية الإنكليزيـــة، دلالاتٍ نفسيةً في النص، إذ إن ليلى " سئمت الحوار بلغة أجنبية، ولنتذكر أن اللغـــة الوطنيـــة هي لغة الأم و لسانها، أي هي لغة الدفء و التواصل العاطفي (...) والحلوى هـــي دائماً رمز الحب، ألسنا نصف الجميلة في العربية بقولنا (حلوة)، و نَـصِفُ جمـــال المرأة بالحلاوة "[66].

إن تحليل القصة المذكورة، طبقاً لقراءة الناقد النفسية، يكشف صورة غياهب اللاشعور لطفولة مبكرة، تمتد جذورها إلى مرحلة الرضاعة، أي إلى العام الأول وبدايات العـــام الثاني، تلك المرحلة التي أصبحت عبئاً يهز بطلة القصة ليلى حتى سن الرشد .

و يمتاز نص القصة باختلاطات نفسية كثيرة، كاختلاط الذكر والأنثى، وتحول الجدة إلى ذئب، الأمرالذي يؤكد الرغبات الدفينة، والطاقات اللبيديـــة فـــي دلالات الرمـــوز والإشارات.

إن ما قام به الناقد من قراءة تحليلية للنص، هو عمل افتراضي تأويلي، حـــاول فيـــه اكتشاف التحولات الأساسية التي تحصل في بنية اللغة، استناداً إلى نظرية "الدال" التي قبست من القراءات اللسانية عدداً من المفهومات التحليلية، و أفادت من "دوسوســـير" و"ياكسبون" بعض أدواتهما في عملية مزج لا تخفى عن أعين المدقق في الدراســـات النفسية. و قد اشتهر "جاك لاكان" بتأكيد "أهمية اللغة في التحليل النفسي"[67].

---

65 جاك لا كان و إغواء التحليل النفسي، ورد، ص 85.

66 د . فرج أحمد فرج، التحليل النفسي، المرجع السابق، ص 29.

67 جون فورستر، المحلل النفسي و الكلمات، ورد، ص 139 .

ولم يغب عن ذهن الباحث فرج أنه يحلل نصاً فنياً، إذ أشار إلـى أهميـة الفـن فـي التواصل، وظن أن تحليل النص نفسياً يؤكد أهمية المسألة الإبداعية ككـل " فالإبـداع الفني ينطوي على شكل من أشكال الحماية من المرض النفسي ... إنه البديل له "[68]. مما يذكرنا بمقولة أرسطو بشأن الوظيفة التطهيرية للإبداع الفني[69]، وما لها من أثـر في عصور تالية.

وفي تحليله قصة "روبابيكا" لنجيب محفوظ، من مجموعة حكاية بلا بداية ولا نهايـة [الصادرة سنة 1978، عن دار مصر للطباعة] اعتقد الباحث فرج أحمد فرج أن النص القصصي يوجد أبعاده النفسية، ضمن علاقات لغوية وتركيبية متشابكة، ففي المـشهد الأول للقصة يتم التعارف بين الرجل و المرأة على كورنيش النيل، وفسره على أنـه لقاء أزلي، و " كأننا إزاء آدم و حواء، الرجل و المرأة عبر الزمان و المكـان،(...) وبهذا يرمز اللقاء إلى البداية أو الميلاد على أرض النيل ــ مـصر ــ ويـأتي ذكـر الربيع إشارة إلى ازدهار الحياة و تكاثرها وتفتحها "[70]. ولاحظ الباحث فـي حـديث نجيب محفوظ عن السير مشياً على الأقدام ؛ كنوع من أنواع ممارسة الرياضـة،وفيه تُكتسب الرشاقة،وذلك بقوله في القصة: "المشوار ضروري لتجنب الترهل"، إنه ــ في تحليل الناقد ــ إعراب لا شعوري عن "التحرر من الترهل، بما يعنيه هذا الترهل فـي زيادة جرعة الأنوثة التقليدية (...)، وما تعنيه السمنة وزيادة الوزن مـن رمزيـة لا شعورية للحمل "[71] والملاحظ في هذا التحليل الذي يقدمه الباحث، أن هنالك إحالة إلى

[68] د . فرج أحمد فرج، التحليل النفسي للأدب، ورد، ص 35.

[69] أرسطو طاليس، كتاب في الشعر، حققه د . شكري عياد، مطبعة دار الكاتب العربـي، القـاهرة، 1967، ص 48.

[70] – د . فرج أحمد فرج، التحليل النفسي و القصة القصيرة، مجلة فصول المجلد الثاني، العدد الرابع، 1982، ص 171.

[71] نفسه، ص 171.

فكرة "الأنماط الأولية" و "الأنثى الخالدة " و ما استقر في اللاشعور الجمعـــي،و فــق أسس مدرسة "كارل غوستاف يونج"، و تأكيدها التشابه لدى جميع الأجناس البــشرية في قضية النقل في اللاشعور الجمعـــــي[72]،

و الأنثى الخالدة، بهذا المعنى النفسي، دائمة الخصوبة، و دائمة الحــضور، ودائمــة الجمال، مما يكسبها بعداً دلالياً في القراءات النفسية و تحليلات النصوص.

وحين استعرضت الزوجة نفسها أمام المرآة، في نص نجيب محفوظ، (الصفحة 174 من القصة) ونظرت إلى عقدها المطوق لجيدها بإعجاب، ارتأى الناقد فرج أن ذلــك المشهد هو سلوك نفسي، وتقوم به الزوجة، كنوع من أنواع الاستعراض ولفت النظر، وهو درجة "من درجات العجب النرجسي بالذات"[73]، مؤكداً في ذلك أهمية أن يستقرئ المحلل النفسي دلالات الأفعال، و رمزية الإشارات، انطلاقاً من أن القــراءة النفــسية للنص تعمق فهمنا بالعمل الإبداعي، و تتغلغل في أعماق اللغة، وتسبر أغوار الكــلام والعبارات.

وفي الحوار الذي يدور بين الزوج والزوجة، يتكلم الزوج علــى وضــعه التجــاري المتأزم، ويقول: " لا فائدة لقد أفلست في كل شيء " [الــصفحة 179 مــن القــصة]، ويحلل الباحث هذا الكلام، و يستقرئه على أنه إفلاس إنساني وجودي شــامل، وهــو إفلاس القدرة على الحب والعمل، ويــدل علــى " الــشيخوخة بــالمعنى الوجــودي السيكولوجي المجرد "[74].

لا شك في أن التحليل النفسي للنص الأدبي عمل شاق، وهو يحتاج إلى قارئ مجتهــد ليقوم بتحليل الكلام، وتأويل ما بين السطور وتؤدي التحليلات المجتهدة إلى فهم نفسي

72 كارل غوستاف يونج، علم النفس التحليلي، ترجمة نهاد خياطة، دار الحوار اللاذقية، ط1، 1985، ص 13 ــ 14.

[73] د . فرج أحمد فرج، التحليل النفسي و القصة القصيرة، ورد، ص 172.

[74] نفسه، ص 174.

أعمق، ويعتقد الباحثون النفسيون بأنه الأنسب، ويشككون في قدرة المناهج الأخرى، ظناً منهم بأن النص الأدبي ذو طبيعة خاصة، وهو يستقطب نوعاً خاصاً من المناهج. ومن هذا المنطلق رأى الباحث فرج أحمد فرج أن التحليل النفسي أكثر نجاعة من غيره، وهو وحده الذي يمكننا من فهم قصة نجيب محفوظ المذكورة، وأن "النظر إلى مثل هذه القصة من زاوية واقعية موضوعية إما أن يدفعنا إلى العجز عن فهمها، أو إلى رفضها (...)، وأن صورة المرأة على هذا النحو (...)، تعبير عن صورتها الأولية اللاشعورية "[75].

وبدهي أننا لا نؤيد رأي الباحث، فلكل منهج أدواته و مقولاته، وهو يقرأ في النص ما يلبي حاجته البحثية، ولا يمكننا أن نؤيد ادعاء أحد المناهج بأنه الأنسب والأكمل في عملية القراءة النقدية للنص .

وهنالك سؤال مهم يواجه قارئ النص، أياً كان منهجه، هل يكون المبدع على وعي بما يتضمنه نصه الأدبي؟ أي: هل تلك الاحتمالات التي يطلقها الباحث موجودة في ذهن المبدع كما هي في نصه ؟ سؤال صعب يواجه الباحثين، والإجابة عنه اصعب، إلا أن بعض المقولات تؤكد بأن القصدية التي يرمي إليها النص قد تكون غائبة عن ذهن المؤلف، وربما خرج النص عن قصدية صاحبه، وذلك بسبب الاحتمالات التي يشتمل عليها النص، إذ إن " تمرد النص على قصد كاتبه، يفتح المجال لاحتمالات متعددة تتيح استدعاء ما لم يكن أصلاً موجوداً "[76].

إن النفسيين يأخذون حاجتهم من النص الأدبي، ويرون أنه يحمل إمكانات نفسية هائلة،

---

[75] نفسه، 174 ـ 175.

[76] د . لمياء باعشن، نظريات قراءة النص، علامات في النقد، ع 39، النادي الأدبي الثقافي بجدة، مارس 2001، ص 165.

ويظهر دورالمحلل في الإفـادة مـن تلـك الإمكانـات. والمعـروف أن نـصوص "سوفوكليس" و " شكسبير" سبقت فرويد بقرون، وأنها كانت وطيد ة الصلة بيانبيع اللا شعور التي نهل منها النفسيون، وأن " الكاتب المبدع يعبر والعلم يفسر، ولا يمكـن أن تكون المعرفة العلمية كطبيعة اللاشعور مدخلاً للإبداع، وإلا صـار الأمـر صـنعة مفتعلة"[77].

لقد توكأ الباحث فرج على معطيات المدرسة الإنجليزية، في تحليلاته للقصة القصيرة ومن أبرز ممثليها "ميلاني كلاين"، الباحثة النفسية التي أطلقت مـصطلح "الـصورة الوالدية المزدوجة"، وهو المفهوم الذي كان قد وضعه "يونج" ثـم أعـادت "كلايـن" استخدامه، بغية الإصلاح الهوامي للموضوع الأمومي[78]، و الصورة التي تجمـع في لا شعور الطفل بين الأم و الأب معاً في كل واحد.

و هذا ما وجده الباحث في قصة "أهل الهوى" وهي القصة الأولـى مـن مجموعـة [رأيت فيما يرى النائم] للكاتب الكبير نجيب محفوظ، و رأى الناقد أن علاقة الرجـل بالمرأة هي "علاقة غريبة، ظاهرها علاقة طفل بأم، وباطنها علاقة عـشقية شـهوية جامحة "[79]. وقدم قراءة نفسية لسيرورة الأحداث في النص، وفسر هروب "عبـد الله " البطل الرئيسي في القصة، من " نعمة الله " إحدى شخـصيات القـصة بأنـه سـلوك نفســـــي، وقرر أننا "إزاء ما يشبه النكوص، أي الارتداد بالمعنى الاكلينيكي، إلى مستوى مبكر من النمو والارتقاء النفسي،إنها ردة أو نكسة إلى ينابيع الماضي الباكر، واستسلام لها، واغتراف من ينابيعها حتى يصبح استئناف المسيرة ممكناً"[80]، وتلـك

[77] د . فرج أحمد فرج، التحليل النفسي و القصة القصيرة، ورد ص 175.

[78] مارسيل ماريني، النقد التحليلي النفسي، من مرجع عام مدخل إلى مناهج النقـد الأدبـي، ورد ص 103.

[79] د . فرج أحمد فرج، التحليل النفسي و القصة القصيرة، ورد، ص 176

[80] نفسه، ص 177.

الردة هي عودة إلى حضن الأم، بالمفهوم الهوامي الذي ذكرناه لدى "كلاين"، والنكوص شكل من أشكال العودة إلى الأم الهوامية أيضاً.

إن النص الأدبي يشتمل على جوانب معرفية متعددة، إضافة إلى الجانب الجمالي، وينهض التحليل النفسي بواجب الاستكناه المعرفي، بوصفه منهجاً علمياً يمتح من المعارف النفسية أدواته، ويسهم بدور كبير في نقل ما يدور في النص إلى قرائه.

ويمتلك المحلل دقة الملاحظة الواعية للمعطيات النفسية الكامنة في النص، ويعمل على ربطها بقوانينها البحثية الناظمة لها في مرجعية خاصة.

وقد تسهم القراءة البنيوية في الكشف عن بنية نفسية محددة في النص، مما يؤدي إلى اتساع الدائرة التأويلية في التحليل النفسي للنص.

قامت الباحثة هدى وصفي بتحليل نص رواية "الشحاذ" لنجيب محفوظ، استناداً إلى أمشاج المنهجين النفسي والبنيوي وتفاعل أدواتهما، ونظرت إلى نص الرواية "بوصفه بناء ينشأ تبريره من داخله"[81].

و نهجت منهج التحليل النفسي سبيلاً إلى فهم النص، واستعانت بأدوات المنهج البنيوي، مما يذكرنا بتنظيرات "جوليا كريستوفا" التي توجهت، بعد كتابها" من أجل ثورة للغة الشعرية"، "أكثر فأكثر نحو التحليل النفسي"[82]، إضافة إلى استعانتها بالتحليل السيميولوجي، كنظرية تمزج فيها جميع المعارف المعاصرة، انطلاقاً من أن النصوص "بعضها يحمل دلالة محددة مقننة، وبعضها يحمل دلالة عامة منسقة[83].

---

[81] د . هدى وصفي، الشحاذ دراسة نفسبنيوية، مجلة فصول، عدد يناير، 1981، ص 182.

[82] – مارسيل ماريني، النقد التحليلي النفسي، من مرجع عام مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ورد ص 110.

[83] د . سيزا قاسم، القارئ والنص، ورد ص 31.

وفي تحليل الباحثة للحوار الداخلي الذي يجري على لسان "عمر" وهو البطل الرئيس في رواية الشحاذ، و منه: "زولوا لأرى النجوم! إني بخير ما انتصرت عليكم، لا حاجة بي إلى إنسان "رأت أن الفعلين "يزول ـ ينتصر" يشكلان نوعاً من الانفعال المأساوي لمعركة انتهت بالخلاص، و " في ضوء هذا التنويع سيكون التأويل "084

و ذهبت الناقدة إلى أن سرد الأحداث بطريقة الرجوع إلى الوراء، أو الاستدعاء، هو شكل نفسي، وهي طريقة للبناء السردي النفسي، وأن استخدام الكاتب لعبارات: إحباط ولا مبالاة، وهذيان، هو استكناه نفسي له دلالاته النفسية.

لقد استطاعت الباحثة بهذه القراءة النفسية، والتي عولت فيها على البنيوية، أن توسع فهمنا للنص، وأن تضيء جوانب مهمة في بنية النص، بتحليل الحوار، واستقراء الأفعال والتصرفات. والملاحظ أن هذه الدراسة النقدية حظيت بتقييم جيد، بوصفها إحدى الدراسات التي تعمق الرؤية في أدب نجيب محفوظ، و تستكنه عوالم نصه، وأن من يقرأ تحليل هدى وصفي للعمل المذكور " تتعمق لديه رؤية نجيب محفوظ، وتتعدد منظوراتها وتتسع أسطورتها، و يكتشف ـ في الآن ذاته ـ رؤية هدى وصفي "[85]. ولم تتفرد الباحثة وصفي برؤيتها النفسية المذكورة لرواية الشحاذ، بل شاركت غيرها في استكناه البعد المأساوي لنص الرواية، واتفقت مع رأي باحث آخر، كان قد سبقها إلى نعت الرواية بالطابع الدرامي الفظيع، و ذلك في أثناء تحليله لشخصية بطل الرواية "عمر" في تناقضاته، واكتئابه، واستكملت مأساته حين قرر أن "يعتزل الناس

---

[84] د . هدى وصفي، الشحاذ، دراسة نفسنيوية، ورد، ص 183.

[85] د 0 سيد محمد السيد قطب، هوية الخطاب النقدي، أعمال المؤتمر الدولي الأول للنقد الأدبي، القاهرة أكتوبر 1997، مطبوعات المنار العربي، المجلد الثاني، ط1، 1999، ص 119.

في كوخ بعيد يناجي الصخر، ويخاطب الحيوان، ويناقش الكائنات المنقرضة "[86].
ويبدو أن الباحثة وجدت مسوّغها في القراءة النفسية، استناداً إلى ذلك الرأي، بشكل أو بآخر، وأن لا شيء يمنع أن ننهج " نهج بعض التحليلات النفسية التي ترى أن الإنسان المعاصر سجين القلق، وأنه يحاول محاولة مستميته للفرار من عبثية وجوده "[87]،وأن النص مشبع بتلك المكونات النفسية،مما جعله مركزاً لقراءات نفسية، للتعرف إلى تجربته، وكما تقول "بودكين": "إن تحليلنا إنما هو للتجربة التي تنتقل لأنفسنا"[88].

وهذا يعزز قدرة التحليل النفسي على تأويل النص، وبخاصة حين تكون غاية التأويل" السعي للوقوف على مقاصد المؤلف"[89]، والقصد النفسي واحد من جملة المقاصد في النص.

ويمكن القول بأن القراءة النفسية – ضمن الاتجاه النفسي العام – حققت خطوات مهمة

وأثَرَت الدراسات النقدية بتحليلات متعددة، وتعاملت مع النصوص الأدبية وفق منظومتها الخاصة، وقدمت التفسيرات المناسبة، وأولت ما بين السطور تأويلاً مختلفاً، وبصرت المتلقين بما في أعماق النص و مكنوناته.

وبرز دور القارئ في استنطاق النص نفسياً، و معرفة ما يدور في داخله، وذلك بالتركيز على المستتر في النص أو المسكوت عنه.

---

[86] د 0 يحيى الرخاوي، قراءات في نجيب محفوظ، ورد ذكره، و قد أشار إلى أن الدراسة صدرت قبل اثنتين و عشرين سنة من تاريخ الكتاب، و نشرت في مجلة الصحة النفسية، ينظر الصفحة 167 من الكتاب

[87] د 0 هدى وصفي، الشحاذ، ورد، ص 184.

[88] ستانلي هايمن، النقد الأدبي و مدارسة الحديثة، الجزء الأول، ترجمة د . إحسان عباس و د . محمد يوسف نجم، دار الثقافة بيروت، 1958، ص 255 .

[89] د . أمينة غصن، قراءات غير بريئة في التأويل و التلقي، دار الآداب بيروت ط1، 1999، ص 54

تعتقد الباحثة رجاء نعمة أن نص رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" يشتمل على أبعاد نفسية متعددة، ويمكن للمحلل كشفها نفسياً.

وتتمثل تلك الأبعاد في قضية "الصراع مع الآخر"، أي صراع البطل "مصطفى سعيد" مع الآخر المتمثل في السلطة، إلا أنه صراع غير متكافئ نفسياً، لأن الذات مقهورة ولأن الآخر – السلطة – قاهرة.

ورأت الباحثة أن كثيراً من الإيضاح يحصل في تلقي القارئ للنص، و"تتضح ملامح هذا المعنى، وتتحدد دلالاته، ويتجلى الخفي منه، كما تستخرج القيم اللامرئية فيه"[90].

والدراسة هي مواجهة للنص الأدبي بأساليب جديدة من القراءة، و أفادت من المقولات النفسية و أدواتها في قراءة النص، كمقولات " جان بيلمان نويل " إضافة إلى أدوات الآخرين.

وليس غريباً أن يجرب النفسيون محاورة النص، وهذا ما تقره آراء الباحثين جميعاً، إذ إن اللجوء إلى التحليلات النفسية، هو بمثابة العوامل المساعدة على فهم أوسع للنص. وصحيح أننا نلجأ في كثير من الأحيان إلى تحليلات لغوية، ربما يكون لها الأولوية، إلا أن "الحاجة قد تشتد إلى هذا العنصر المساعد أحياناً"[91]. و ليس مستبعداً أن يصبح المساعد رئيساً، و ذلك حين تصبح الحاجة إليه ضرورة تقتضيها معرفة الخفايا الكامنة في النص، تلك التي لا تستطيع المناهج الأخرى إليها سبيلاً، كالخفايا النفسية و قضايا اللاشعور و المرموزات و الدلالات و غير ذلك .

---

90 رجاء نعمة، صراع المقهور مع السلطة، دراسة في التحليل النفسي لرواية الطيب صالح موسم الهجرة إلى الشمال، مغفل دار الطبع، بيروت، 1986، ص 21.

91 – د . محمد العيد الخطراوي، ثلاث نماذج تطبيقية لمحاورة النص، علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ربيع الآخر،1423 هجرية، الموافق 2002 ميلادية، ص 146.

لقد استعانت الباحثة نعمة بتحليلات "برونو" في تتبعها نص الطيب صالح،واعتقدت أن هنالك وظيفة نفسية للأعمال القصصية، كما فعل " برونو " في تتبعه الحكايات العجيبة للأطفال، انطلاقاً من كونها تظهر أشكال الصراع بين الأنا،والأنا الأعلى، والهو، وأن ذلك الصراع الدائر بين تلك القوى النفسية الخفية في النص ؛ هو شكل من أشكال التطورات الخفية ذاتها، استناداً إلى مقولات" شارل مورون " في النقد النفسي وتأكيداته "استقلالية المنهج الذي عليه إيجاد أدواته الخاصة، وفق الغاية التي يضعها لنفسه"[92]، وأن تلك الأدوات قادرة على قراءة النص، وهذا ما طبقه في أثناء تناوله أعمال "مالاراميه" و"راسين" و"بودلير" و"موليير"، وفق منهج التحليل النفسي لنصوصهم[93].

وانطلقت الباحثة من غاية مهمة في الدراسة، وهي استكناه الخفي في النص، و كذلك "معرفة ماذا يدور داخل النص، ومعرفة كيف يحدث أيضاً"[94]، الأمر الذي جعلها تعنى بالاستدلال بغية الوصول إلى علاقات غير ملحوظة، وذلك عن طريق الاكتشاف النفسي للنص.

ودعت القارئ "المتلقي" كي يشاركها في معرفة ذاك الدائر في النص، مذكرةً بأفكار "جان بيلمان نويل "و بمصطلح "لاشعور النص"، حين قال إنه "يجب على القارئ الذي يسبح في النص لأجل الإصغاء إلى عمل لاشعوري،عندما يأخذ القلم ليتوجه إلى الجمهور، أن يكتشف في نفسه الوسائل(...)لإعادة إلقاء هذا العمل في لاشعور قرائه الخاصين "[95]. وأسقطت الباحثة إرهاصات الفرويدية على النص، إضافة إلى مقولة "نويل"، وذلك في أثناء حديثها عن أهمية المكان في لاشعور المبدع، ورأت

---

[92] مارسيل ماريني، النقد التحليلي النفسي، من مرجع عام مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ورد ص 97.

[93] نفسه، ص 38 و ما بعدها.

[94] رجاء نعمة، صراع المقهور مع السلطة، ورد ص 23.

[95] جان بيلمان نويل.، التحليل النفسي والأدب ورد ص 117.

أن المكان يسهم في تحديد مواصفات الإبداع وقدراته الخلاقة، واعتقدت أن المكان الذي ولد فيه الكاتب الروائي الطيب صالح غير قادر على استيعاب إبداعه !

وتمت النقلة النوعية الأهم، إذ استعان بمكان آخر" الغرب "ليشكل المكان بديلاً من عجز الواقع، وأصبح الكاتب" محتاجاً لذلك العنصر الوافد يعطيه دفعاً جديداً ويثير الشعلة الكامنة فيه "[96].

وهنا نتساءل: هل كان المكان شكلاً من أشكال التعويض، أو ما يمكن أن نسميه " رأب الصدع " في عملية الإبداع ؟ مما يذكرنا بمقولات مدرسة التحليل النفسي،وذلك حين أكدت أن عملية رأب الصدع بين المبدع و الواقع،هي نتيجة العصاب الذي يشكل دافعاً للإبداع " عن طريق الخلق الفني "[97].

وليس مستبعداً أن يكون سعي الباحثة مقصوداً منه هذا التوجه المشروع. لقد بذلت الباحثة جهداً في نقل تصوراتها لما يدور في النص إلى المتلقين، عبر أدوات نفسية متقنة، واستطاعت بوساطتها دراسة الدلالات و العلامات الناظمة للنص، فسبرت نص الرواية واجتهدت كي " تخرج من إطار علم النفس العام والتحليل النفسي إلى مجال علاقة التحليل النفسي ذاته بالسيميائيات المعاصرة"[98]، دون أن يخلو عملها من هنات و تطرف، إذ إن معرفة ما يدور في النص، من منظور تأويلي نفسي، وكيف كان يدور، قد تمَّ على حساب فنية النص، وليس من السهل فصل النص

---

[96] رجاء نعمة، صراع المقهور مع السلطة، ورد ص 296

[97] جان لوي بودري، فرويد والإبداع الأدبي، ورد ص 132.

[98] د. حميد لحمداني، النقد النفسي المعاصر، تطبيقاته في مجال السرد، منشورات دراسات ـ سال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1 1991، ص 82 .

عـن جمالياته، ولا يمكننا أن نلـــــزم "النص الأدبي بأدوات العلم حتى نتعامـل معه بمنهج علمي خالص ومتخصص"[99].

وليس تعسفاً إذا قلنا إن أسئلة جوهرية غابت عن بعض القراءات النفسية، وهي أسئلة تتعلق بطبيعة الإنتاج الفني، بوصفه خلقاً إبداعياً، وكان يجب علـى القـــــراءات النفسيـة

– التي أهملت الفنية – الإجابة عنها، وهي مهمة من مهمات النقد، أياً كانت القراءات التي ينهجها .

وقد تساءل " أ ـ ريتشاردز "، وهو أحد المولعين بالنقد النفسي، فقال: "ما الذي يضفي قيمة على تجربة قراءتنا لإحدى القصائد ؟ ومـا الذي يجعلها أفضل من غيرها مـن التجارب؟))[100].

وطبيعي أن نؤكد أن التعاطف مع نوع من القراءات لا ينبغي له أن يتم على حـساب التخلي عن فنية النص المدروس.

لقد تآزرت العلوم النفسية، على مختلف مشاربها، و تعاضـدت أدواتهـا فـي سـبيل دراســة الأدب، واستطاعت مدراس التحليل النفسي الإفادة من تطـورات المنـاهج اللغوية والبنيوية، وحاولت قراءة النص قراءة مجتهدة، مما يدعونا– بحثيـاً ـ إلـى استقراء معالم نقدية مهمة فيما نسميه القراءة النفسية.

---

[99] د. مصطفى عبد الغني، اتجاهات النقد الروائي المعاصر، الجزء الأول، الهيئـة المـصرية العامـة للكتاب، 2001، ص42.

[100] إ ـ إ ـ ريتشاردز، مبادئ النقد الأدبي، ترجمة د. مصطفى بـدوي، قـام بمراجعتـه د. لـويس عوض، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963، ص 42.

والملاحظ أن القراءة النفسية لم تكتف بالنصوص الأدبية المعاصرة، بل اتجهت إلى النصوص الأدبية القديمة، كنص " ألف ليلة و ليلة، و حاول الباحثون سبره و قراءة أبنيته اللغوية وتراكيبه، بوصفه نصاً قابعاً في ذاكرتنا، محاولين بعث الحياة فيه.

واستندوا في ذلك إلى مقولة " إليزابيت دالتون "الداعية إلى دراسة النص من داخله، وبشكل مستقل عن مؤلفه، وذلك في قولها: "إن المرجعيات للعمل الأدبي تكون موجودة بداخله، برغم أن تشكيل المعنى اللاشعوري للنص يكون مستمداً من الحياة النفسية اللاشعورية للمؤلف"[101].

وتعد دراسة فرج أحمد فرج من أهم القراءات التي تناولت نص (ألف ليلة و ليلة)، وهي قراءة تمتح أدواتها النفسية من المدرسة "اللاكانية"، وربما كانت أيضاً من أهم القراءات المتأثرة بـ "جاك لا كان" في النقد النفسي العربي، و تأتي أهميتها من منهج تعاملها مع اللغة والمفردات والتراكيب والعبارات في النص، مستندة إلى تحليل أنظمة البنى اللغوية في "ألف ليلة و ليلة ".

وحاول الباحث فرج تمثل المعطيات الجديدة التي قدمها " لا كان "، وكان لها فائدة كبيرة في قراءة النص و تحليله، خصوصاً عندما تحدث عن البنى اللغوية في اللاشعور، وربط بين التحليل النفسي واللغويات البنيوية، وفرق بين اللغة والكلام . إذ إنه ينظر إلى اللغة بوصفها نظاماً ذهنياً إنسانياً، ويشتمل على المفردات والتراكيب والنحو والصرف، وأما الكلام فله مقدراته الخاصة القادرة على تطويع الفرد للنظامين الذهني واللغوي، وذلك في معالجته وظيفة اللغة والكلام، إذ قرر أن "تأثير اللغة أكبر ما يكون حين تقول شيئاً من خلال قول شيء آخر"[102].

---

[101] د . شاكر عبد الحميد، التفضيل الجمالي، دراسة في سيكولوجية التذوق الفني، ورد، ص 327.

[102] المقولة لجاك لا كان أثبتها جون فورستر في بحثه الموسوم بـ: [ماذا يفعل المحلل النفسي بالكلمات: أوستن ولا كان وأفعال الكلام في التحليل النفسي] ينظر: جون فورستر، المحلل النفسي

واعتقد الباحث فرج أن هذا العمل الخالد "ألف ليلة وليلة" هو مرآة لقلب الإنسان، أو قل "لعقل الإنسان ــ بلغة لا شعوره ــ عن هذه الدراما العميقة دراما الوجود الإنساني"[103].

وقدم الناقد قراءته للنص من منظور نفسي، ورأى أن ذكر "شهريار" و"شاه زمان" وذكر أبيهما الملك هو تجسيد للسلطة، وأن " الملك هنا رمز يجسد جوهر الإنسان"[104]، وأن انتقال السلطة إلى الأبناء الذكور هو تجسيد للأبوية والذكرية.

ورأى أن العقدة في النص تمثلت في قتل "شاه زمان" لزوجه، وذلك بعد أن رآها في وضع مريب مع العبد الأسود.

وبدا للناقد أن النص يحمل دلالات جدلية في مساحته، وهي توحي بالعلاقة الجدلية بين الرجل و المرأة، وهي علاقة النقيض، وأتاح له التحليل النفسي تبيان ذلك الجدل " على مستوى الفرد و التاريخ الفردي،وعلى مستوى تاريخ النوع البشري كله، في علاقة الرجل و المرأة "[105].

وفسر تلك العلاقة، بين الرجل والمرأة، بعلاقة الاشتهاء المتبادل في أبعادها القصوى،" البعد البشري والتاريخي، التشريعي الواعي،هو بعد الصراع،صراع الإرادات "[106]. مما يعني ــ في المنظور النفسي ــ أن هنالك تبادلاً للمواقع حصل في غياب الزوج، و كذلك الشأن فيما يتعلق بزوج أخيه شهريار، فقد أصبح

والكلمات، إعداد وترجمة عبد المقصود عبد الكريم، من مرجع عام بعنوان: جاك لا كان وإغواء التحليل النفسي، ورد، ص 131.

[103] – د . فرج أحمد فرج، التحليل النفسي وألف ليلة وليلة، مجلة فصول، المجلد الثاني عشر، العدد الرابع، شتاء 1994، ص 116.

[104] نفسه، ص 117 .

[105] نفسه، ص 118.

[106] نفسه، ص 118 ــ 119.

العبد سيداً، وأن دلالة "في الليل" التي ترددت في النص مليئة بالمرموزات والرغبات، إذ إن " عالم الليل هو عالم الحلم، عالم الرغبات الخفية، و قد أفلتت من قبضة النهار، قبضة الواقع و قبضة السلطة"[107].

ورأى الباحث في عبارة "كيد النسا غلب كيد الرجال" التي وردت في نص الحكاية، على لسان الملكين، الأصغر و الأكبر، أنها شعور واضح بالهروب والتراجع، وهي بداية الصدمة " صدمة فقدان السلطة "[108]،وأن قتل الزوج لكل فتاة دخل عليها، هو انقلاب و تحول يحمل في طياته الاضطهاد البارانوي، فالملك نموذج للشخص السادي.

والواضح أن قيام الناقد فرج بقراءة النص وإحالته إلى مرموزاته، وبناه النفسية، وكشف ما فيه من خفايا اللاشعور، هو سعي مجتهد إلى إقامة تأويل نفسي مواز للنص الأدبي، وربطه بما يعادله من أفكار الواقع النفسي المعيش، وهذا شبيه بعمل جاك لا كان الذي سعى باتجاه إيجاد " التمفصل المتبادل لبعدي الزمنية المتعلقة بالتحليل النفسي "[109].

إنه زمن ماضٍ يتفاعل مع الزمن الحاضر و المستقبل في نص خالد، سعت فيه شهرزاد إلى الخلاص،وقدر الباحث فرج أن تصرفها تعبير عن عمل اللاشعور الجمعي ـــ الفردي، وأن انتصارها هو " انتصار الحياة على الموت "[110]، وصارت بذلك حدثاً رمزياً متحولاً وقابعاً في النص، و انتقل الحدث من النص ـــ عبر اللغة ـــ إلى لا وعينا في مشروعية اجتماعية وقانونية وتاريخية، مما يذكرنا ـــ أيضاً ـــ بأفكار

[107] نفسه، ص 119.

[108] – نفسه، ص 120.

[109] جون فورستر، و ظيفة الزمن في التحليل النفسي، من مرجع عام بعنوان: جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي، ورد ص 323.

[110] د. فرج أحمد فرج، التحليل النفسي و ألف ليلة و ليلة، ورد ص 125.

" جاك لا كان " التي نظر فيها إلى الحدث بصفته فهماً متطوراً، وينتقل من الذات إلى الآخر في مفهوم أطلق عليه مفهوم " الفعل المؤجل "[111].

وكشفت القراءة عن قدرة التحليل النفسي على سبر دلالة العلاقة بين شهريار و شهرزاد في بعدين مندمجين، بعد نرجسي، وبعد غيري، وهما بعدان متداخلان تداخلاً عميقاً، فشهرزاد "بعض من شهريار، هي شقه الآخر، مرآته يرى فيه نفسه و يجسد من خلالها وجوده "[112].

وهذا تصور مهم لطبيعة التناقضات الكامنة في نص " ألف ليلة و ليلة "، وأن ما يعنينا هنا هو الربط بين العلاقتين، مما يكشف لنا جانباً مهماً في فهمهما، استناداً إلى "المرآتية" بمفهوم "لا كان" .

فالربط بين النرجسية من جهة، والتنوع "النوعي" من جهة ثانية، و عكس ذلك في جدلية التفاعل، يفصح عن جانب الحب الشديد الذي ظل كامناً في لا شعور شهريار تجاه شهرزاد، إذ إن الذات في أثناء ولوعها بنفسها "كقضية نرجسية" تسعى إلى إزاحة الآخر ولكنها تسمح ــ بآن معاً ــ للآخر بأن يستعيد تكامله بصورة "لا مثالية للأنا، وذلك في كل مرة يحدث استعادة للتمثل البهيج لمرحلة المرآة (الأنا) على مسارات مشابهة، وفي كل مرة يسحر الفرد بفرد آخر فهو يتعين ذاتياً بمثال الأنا، وهكذا تبزغ ظاهرة الحب "[113].

إن القراءة التي قدمها لنا فرج، هي إضاءة نفسية لنص " ألف ليلة و ليلة "، أ بصرتنا بمكنونات ذلك النص التراثي الخالد، و صحيح أن هذا التصور لتلك العلاقة بين شهريار و شهرزاد، ربما لا يرضي أنصار القراءات الأخرى، كالاجتماعية والثقافية

---

[111] جون فورستر، و ظيفة الزمن في التحليل النفسي، ورد ص 3 .

[112] د . فرج أحمد فرج التحليل النفسي و ألف ليلة و ليلة، ورد ص 128.

[113] د . نيفين زيور، من النرجسية إلى مرحلة المرآة، قراءات في التحليل النفسي، مكتبة الإنجلو ــ المصرية، القاهرة، 2000 ص 122

مثلاً، إلا أن الباحث قدم تصوره انسجاماً مع أدوات المنهج الذي اتبعه، وأسقط مقولاته النفسية على النص الأدبي .

القراءة النفسية.. ملاحظات وهنات:

إن التحليل يسبر غور اللاوعي في النص، حيث يسعى المحللون من خلاله إلى اكتشاف أشياء لم تقل في النص الأدبي، انطلاقاً من مقولات النفسيين بأن الأدب تعبير عن النفس وخفايا اللاشعور، وأن التحليل النفسي هو الوسيلة الناجعة لكشف أغوار النفس، و يستطيع أن يزيل الغموض عن المكنونات في تصديه لقراءة النص .

وتحدد القراءة النفسية السمات القابعة وراء الدلالات، و تقيم لها الاعتبار النفسي، فتفك مرموزها، وتجلي غموضها.

و ليس ضرورياً أن تكون تلك الدلالات واضحة، وتفصح عن نفسها بسهولة، بل لا بد من قراءة تحولاتها في سياق الغوص عن أعماق الكلمات المستخدمة في النص، وكذلك قراءة التراكيب المكونة لنسيجه.

وصحيح أن القارئ يرمي إلى إثبات تيار نقدي نفسي محدد، ويسعى إلى تأييد مدرسة نفسية معينة، إلا أن الانسجام في استخدام الأدوات أمر ضروري ومهم، لأن هنالك جملة من الأهداف المرسومة للوصول إلى فهم أنجع، مما يعني أن المحلل النفسي يسير في اتجاه واحد ولبغية واحدة، فيعزل النص الأدبي عن سياقاته الأخرى، وربما خرج به عن قصدية صاحبه المبدع . إذن كانت تحتل دراسة السياقات "النفسية الاجتماعية مركزاً متقدماً في بنائه الأساسي "[114]، فالقراءة النفسية تنطلق من جزئياته دون كلياته .

---

[114] د . سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان ط1 1997، ص 100.

و قد لاحظنا سابقاً، حين تم الحديث عن قراءة الباحث خريستو نجم لنص نزار قباني، أنه كان من الممكن أن نفهم من سياق النص أن الشاعر يتحدث عـن حـب طفـولي يتصف بالبراءة، غير أن غلبة الالتزام بالمنهج اضطرته إلى قراءة ذات غاية واحدة .

و يمكن أن نورد مثالين آخرين عن خريستو نجم و قراءتـه التي تحمـل غايـة واحدة .

أما الأول فقد رأى في قول الشاعر اللبناني " هنري زغيب " فـي ديوانـه إيقاعـات الصادر عام 1986، في الصفحة السادسة:

وغيابك صخرة صدري

ألا دحرجيها

أنا إلعازر ذاتي

إنه دليل الحنين إلى المرحلة الجنينية " الرحم "،و هذا يجسد عقدة النكوص من العـالم الخارجي إلى الرحم الهوامي، وما "القبر ــ برغم الصخرة الثقيلة- إلا الرحم "[115].

و من الصعب الاتفاق مع الباحث على هذا التحليل في إرجـاع الأمـر إلـى عقـدة النكوص، لأن "النقلة من الفكرة إلى بديلها، تبدو واحدة من بـديهيات العقـل"[116]، ولا علاقة للتفسير بعقدة النكوص، كل ما في الأمر أن الشاعر لا يريد لمحبوبته أن تتركه، لأن غيابها يجلب الهموم، ويطلب إليها أن تبعد تلك الهموم بحضورها، وأن حضورها يجدد نفس الشاعر، وكأنه يعود إلى الحياة مثل إلعازر، وأما النكوص فيدل في التحليل النفسي على عدد من الظواهر النفسية المرضية، وهي تتصف "جميعها بتقهقر النشاط النفسي (...) وهو يحدث في الأمراض الذهانية "[117].

---

[115] د . خريستونجم، في النقد الأدبي و التحليل النفسي، دار الجيل، بيروت ط1 1991، ص 101.

[116] د. شكري عياد، دائرة الإبداع، دار إلياس العصرية، القاهرة، د . ت، ص 98.

[117] سيغموند فرويد، الموجز في التحليل النفسي، ورد، ص 114.

و أما الثاني ففي قراءته لبيت الأعشى:

غرّاء فرعاء مــصقولة عوارضـــها تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحـــل

اعتقد أنَّ " التحليل النفسي المعاصر يتوقف عند سادية الشاعر المولع بـــامرأة تؤلمهـــا قدماها"[118]، واستبعد الباحث تجليات الصورة،وأبعاد الخيال، ورمزية الموقف ودلالـــة المشية. إذن هنالك اجتزاء في قراءة التحليل النفسي، وإغفال للكلّي، وما نقولـــه عـــن خريستونجم ينطبق على كثيرين، ولا يتسع المجال لمناقشتهم .

ومن هنات القراءة النفسية اختيارها لنماذج بعينها، وذلك يتم فـــي قـــصدية انتقائيـــة للنصوص، مما يضيع فرصة قراءة النصوص غير المنتقاة .

وقد راعى الباحثون النفسيون ــ في انتقاء النصوص ــ استجابة المتلقي لما في داخل النص ؛ أو لِنقل لما في داخل المتلقي، وهذا يؤدي إلى عزل كثير مـــن النـــصوص، وربما فاق النص المعزول أهمية النص المدروس، ومن هنا تتكون هَنَاتُ هذا النـــوع من القراءة .

والواقع أن النفسيين يشعرون بوجود هذه الثغرة، فقد أشار "جان بيلمان نويل" إلى هذه القضية، وانتقد أنصار المولعين بالتحليل النفسي الفرويدي، و ذلك حين " يكون الشرح الفرويدي للنص له وظيفة توضيحية، فهو يتيح إعادة بناء صحيحة، لأنه يشتغل علـــى غرار تفكيك، لكن إذا كان التقطيع عملياً، فإن الانتقاء يمثل خطراً يصعب تقديره"[119].

و لهذا عرض"نويل" مقولة: "لا شعور النص"، والنظر إليه على نحو متكامل، يحمـــل المعاني في تماه بين النص والذات .

[118] ــ د . خريستونجم، سمفونية القدم و الأوتار النفسية، حوليات كليـــة الآداب والعلـــوم الإنـــسانية، جامعة البلمند، عدد 4، 1996 ص 142.

[119] 1ــ جان بيلمان نويل، التحليل النفسي و الأدب، ورد ص 106.

ومن الهنات التي نلحظها في القراءة النفسية التباين في طريقة تحليل النص الأدبـــي، وهي قضية مهمة تواجه متتبع حركة الاتجاه النفسي ومموقعه في مسيرة النقد الأدبـــي العربي.

ويمكننا أن نستنتج ــ باختصار ــ أن هنالك تفاوتاً في القراءات التي عرضـــنا لهـــا، وهو تفاوت بين فريقين من الباحثين، نقاد الأدب من جهة، وعلماء النفس مـــن جهـــة ثانية، مما أدى إلى اختلاف الوسائل و تنوع الغايات.

وقد أقر يحيى الرخاوي، وهو أحد المحللين النفسيين البارزين، بوجود هـــذا التفـــاوت بقوله " إن العالِم في الدراسات النفسية ليس مؤهلاً للنقد النفسي، والناقد الأدبـــي لـــيس عالماً في النفس "[120]. ولهذا لا بد من أن تحدد الأولوية فـــي القـــراءة النفـــسية،وذلك بتحديد غاية البحث: هل قامت الدراسة من أجل النقد الأدبي ؟ أم أنها قامت من أجـــل تحليله نفسياً دون غاية أدبية ؟.

ولا شك في أن الإفراط في استخدام الأدوات النفسية ــ في أثناء القـــراءة ــ يُـــذهب بخصوصيات النص الأدبي. ولا يمكن أن ننسى أن افتراضاتنا التي نطلقها في قـــراءة النص تؤدي بنا ــ أحياناً ــ إلى رفض خاص لفاعلية النص، ولهذا يحـــسن بقـــارئ النص أن يتفوق على المفهومات المسبقة ليكون " في وضع يسمح بحـــصاد تجـــارب جديدة "[121].

وإذا كان أنصار هذا النوع يعتقدون أن " التحليل النفسي للأدب من أصـــلح المنـــاهج الأدبية تقصياً للحقيقة و إثراءً للفن "[122]، فذلك يعني أن التحليل النفسي يطرح قضيتين في صلاحية منهجه و هما تقصي الحقائق، و إثراء الفن، أما الأولى فهي صحيحة لأنه

---

[120] د . يحيى الرخاوي، إشكالية العلوم النفسية و النقد الأدبي، مجلة فصول، عدد 1 المجلـــد الرابـــع، 1983، ص 36.

[121] فولفجانج إيزر، عمليات القراءة ورد، ص 354.

[122] د . خريستونجم، في النقد الأدبي و التحليل النفسي، ورد، ص 39 .

يستقصي الحقائق بأدواته العلمية، و أما الثانية ففيها نظـر ! ! و هـذا يقودنـا إلـى الملاحظة الأهم و هي إغفال المستوى الفني في النصوص المدروسـة. والواقـع أن القراءة النفسية تكاد تغفل، إلا في القليل النادر، الجانب الفني في النص، و هذا عائـد إلى طبيعة القراءة النفسية، و أدواتها، و انتماءاتها المعرفية، كما أشرنا سابقاً.

والقراءة تبحث عن تأويل النص في الدلالات والإشارات، وتحيل المرمـوزات إلـى مرجعياتها النفسية، وهذا يقلل حضور الجانب العاطفي والأسلوبي والخيـالي وغيـر ذلك. وهنا نتساءل: هل تستطيع القراءة النفسية، مهما بدت مرونتها، الكـشف عـن أدبية النص، و جمالية نسيجه، وقيمه الفنية ؟.

لقد عزلت القراءة النفسية ــ في كثير من المواقع ــ النصوص عن سياقاتها الأدبيـة، وأغفلت الوظيفة الجمالية للنص، ورأت أن النص مجموع رموز ودلالات، ومنظومـة كلام، وتناولت سياقه المعرفي، فاستكنهت لا شعور عباراتـه، وسـبرت مكنوناتـه. والمعروف أن النص "عمل أدبي ينتسب إلى منطق اللغة لا إلى الإحساسات، والعاطفة تدين بدلالاتها الفنية للسياق لا لطابع التجربة التي تنبع منها "[123]، وإذا ماتم البحث في النص عن تأويل الدلالات ومرجعياتها المعرفية، فإن هذا يقلل قيمة الجانبين الجمالي والفني في النص.

وتناست القراءات النفسية ــ في الكثير الغالب ــ المكونات الفنية للنصوص الأدبيـة، كما تناست "أن الفن العظيم هو الذي يجمع بين اللذة والجمال والفائدة والأخلاق"[124].

ويلاحظ أن القراءات النفسية تحيل الإبداع إلى عملية أخرى، وتجعل الـنص تعبيـراً عن حالات غير فاعلة، كقضايا المكبوتات واللاشعور، وعقد النرجسية والسادية وغير

---

[123] د . لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب، الشركة المصرية العالمية، لونجمـان، 1997، ص 121.

[124] جان ماري جويو، مسائل فلسفة الفن المعاصر، ترجمة د . سامي الدروبي، دار الفكـر العربـي القاهرة، 1951 ص 8 .

ذلك. ومن المؤكد أن أنصار القراءة النفسية قدموا إسهامات جديدة إلى مسيرة الاتجــاه النفسي في النقد، وأضافوا تصورات نقدية مهمة إلى الدراسات التي استهدفت تحليــل الشخصيات الأدبية، سواء أكانت تراثية أم معاصرة، كتحليل شخصية بــشاربن بــرد، وأبي نواس، وابن الرومي من القدامى، وشخصية جبران خليل جبران، ونزار قباني، ونازك الملائكة من المعاصرين .

وتتبعوا الشخصيات الفنية المتخيّلة في الروايات،تحليلاً ودراســة، كروايــات توفيــق الحكيم ونجيب محفوظ، ونوال السعداوي وغيرهم. وحاولوا تطوير الدراسات الساعية إلى تفسير الظواهر، كظاهرة المعلقات في الشعر الجاهلي، والطلل، والغزل العذري، وتفسير الأحلام والأساطير من المنظور النفسي .

وصحيح أن أدوات القراءة النفسية أكثر مرونة في التحليل، وهي أكثر قرباً إلى النص الأدبي من سابقاتها، لأنها تنطلق من داخل النص وليس من خارجــه، إلا أن هنــات واضحة شابت القراءة النفسية.

ومن جماع تلك الملاحظات و الهنات، إضافة إلى ملاحظات أخرى ربما غابت عنــا، يمكن أن نقدّر رأي المعترضين على التحليل النفسي، وأصوات منتقديــه، وهــي آراء أفصحت عنها بعض الدراسات، ولها منطقها فــي الاعتــراض، وتفنيــداتها البحثيــة المقنعة، وملاحظاتها العديدة، و لا يتسع مجال البحث لا ستعراضها .

الخاتمة:

إن القراءة النفسية مقترنة بالتحليل وإعادة إنتاج المعرفة في النص، وهي تتراءى في التفسير و التأويل و تحليل الإشارات والدلالات الكامنة فيه،مما يؤكد أهميــة القــارئ النفسي في إضاءة النص نفسياً، وذلك بالاستناد إلى مبدأ الــضرورة الــذي تطرحــه القراءة النفسية ألا وهو فهم النص.

ويرى كثير من الباحثين أن التحليل النفسي للأدب يجلي غموضه، و يزيل التباساته بأدوات معرفية مجرّبة. و صحيح أنه ليس ثمة قراءة بريئة، أو قراءة مكتملة، إلا أن تحليل العمل الأدبي يعيده إلى رحاب العلاقة القائمة بين علم النفس والأدب، وهي علاقة وطيدة، تقرّها المناهج على اختلاف مشاربها.

وإذا كان الاتجاه النفسي أحدَ أهم المناهج التي رفدت النقد الأدبي العربي الحديث بروافد غنية، و بأساليب جديدة أدت إلى دفع عجلته إلى الأمام، فإن هنالك تنوعاً في مستوى الاتجاه النفسي ذاته، وقد اهتم الباحثون و النقاد بما قدمته البحوث التي حللت الشخصيات، سواء أكانت تراثية أم معاصرة،وتناولت شخصيات أدبية أو فنية مرسومة في النص.

وتتبعوا ــ في ذلك التنوع ــ البحوث التي حاولت تفسير الظواهر الأدبية و الفنية، كالمعلقات في الشعر الجاهلي، والطلل، والأحلام، والأساطير، والغزل العذري، والرمز من المنظور النفسي،ولكن لم تسلط الأضواء النقدية على " القراءة النفسية " التي نهجت منهج التفسير والتحليل وأدواتهما، ومارست تصوراتها النفسية على النص، فحاورته، و سبرت أغواره، وأعادته إلى مرجعيات اللاشعور وقضايا الكبت وغير ذلك .

وقد حاولنا في هذا البحث أن نعرّف بتلك القراءة وأدواتها ومقولاتها، وأن نعيدها إلى مرجعياتها، وبيّنا موقعها النقدي في فهم النص .

وصحيح أننا أشرنا إلى بعض الملاحظات التي اعتورت منطلق القراءة وغايتها، إلا أن ما قدّم على صعيد فهم النص،وتفسير سياقه النفسي، وتحليل مكنوناته ودلالاته، يجعلنا نثمن هذا النوع من القراءة .

ولعلّ في الاستعراض الذي قدمناه، مع إقرارنا بالتقصير الذي هو من طبيعة الأشياء، لقراءات تناولنا فيها دراسات لنقاد أدب وباحثين ومحللين، ما يبرر متابعة هذا النوع ومسوّغات تداوله مفهوماً نقدياً في الاتجاه النفسي، وهو مفهوم ينسجم مع مفهوم

القراءة ومصطلحاته في النقد الأدبي الحديث، و يشعرنا بأهميته في تحليل النص الأدبي العربي، وسبر مكنوناته، وكشف خفايا لا شعوره في غايات بحثية محددة.

والأهم في تلك الغايات هي عملية التبادل ذاتها، بين القارئ والنص، لأن تبني القارئ للنص يسمه بسماته الخاصة، ويجعله معبراً عما يشعر به، انطلاقاً من أن علم النفس هو علم بالكليات، وأن الأدب هو معرفة باللغة والتراكيب والمفردات، وأن فهم النص ــ من المنظور النفسي ــ مؤسس على الغوص في المكنونات، واكتشاف ما ليس مكتشفاً .

والنص الأدبي يرسل أطياف أشعته إلى المتلقي، فيستجيب له المتلقي وفقاً لفهمه، وانسجاماً مع منهجه، و يسعى إلى فك شفرته وإضاءته نفسياً، استناداً إلى منظومة تحليلية تركيبية، تبدو كأنها إعادة صياغة نفسية للنص.

و تقدّم القراءة النفسية تفسيراً مختلفاً، إنه تفسير يبث الحياة في النص، و يتجاوز سكونه وقراره، ويؤجج فيه وهجاً نفسياً، فيمور بالحياة والرغبات ومكنونات اللاشعور، بأدوات نفسية متقنة، وتضيء أغواره بمفهومات جديدة.

وليس غريباً أن تكون القراءة النفسية إعادة اكتشاف آخر للنص، تجلي غموضه وتفصح عن صمته.

المصادر و المراجع

1ـ إ ـ إ ـ ريتشاردذ، مبادئ النقد الأدبي، ترجمة د . مصطفى بدوي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963.

2ـ أرسطو طاليس، كتاب في الشعر، تحقيق وترجمة حديثة ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية، د. شكري محمد عياد، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967.

3ـ إمبرتو إيكو، التأويل و التأويل المفرط، ترجمة ناصر الحلواني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط1، آب " أغسطس"، 1996.

4ـ د. أمينة غصن، قراءات غير بريئة في التأويل والتلقي، دار الآداب، بيروت ط1، 1999.

5ـ تيري إيغلتون، نظرية الأدب، ترجمة ثائر ديب، وزارة الثقافة، دمشق 1995 .

6ـ جان بيلمان نويل، التحليل النفسي والأدب، ترجمة حسن المودن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 1997.

7ـ جان لوي بودري، فرويد و الإبداع الأدبي، ترجمة موريس أبو ناضر، مجلة الفكر العربي، المعاصر، بيروت 1983 .

8-جان ماري جويو، مسائل فلسفة الفن المعاصر، ترجمة د. سامي الدروبي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1951.

9ـ جورج طرابيشي، الأدب من الداخل، دار الطليعة، بيروت 1987 .

10ـ د. حاتم الصكر، ترويض النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1998.

11ـ حبيب مونسي، القراءة والحداثة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2000 .

12 ـ د. حسن سحلول، نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001 .

13 ــ د . حميد الحمداني، النقد النفسي المعاصر، تطبيقاتــه فــي مجــال الــسرد، منشورات ــ دراسات، سال، مطبعة النجاح، الدار البيــضاء، ط1 1991.

14ــ د.خريستونجم: ــ النرجسية في أدب نزار قباني، دار الرائد العربي، بيروت، 1983 .

15ــ : ــ في النقد الأدبي و التحليل النفسي، دار الجيل، بيــروت، 1991.

16ــ : ــ سمفونية القدم و الأوتار النفسية، حوليات كلية الآداب، جامعة البلمند 1996.

17ــ ديفد ديتش، مناهج النقد الأدبي، ترجمة د . محمد يوسف نجــم، مراجعــة د . إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1967.

18ــ رجاء نعمة، صراع المقهور مع السلطة، دراسة في التحليل النفــسي لروايــة الطيب صالح موسم الهجرة إلى الشمال، مغفــل دار النــشر، بيروت، 1986.

19ــ روبرت شولز، السيمياء والتأويل، ترجمة سعيد الغــانمي، المؤســسة العربيــة للدراسات، بيروت 1994 .

20ــ رولان بارت، لذة النص، ترجمة: منذر عياشي، مركز الإنماء القــومي حلــب 1992

21ــ روبرت هولب، نظرية التلقي، مقدمة نقدية، ترجمة د. عز الــدين إســماعيل، مطبعة النادي الأدبي الثقافي بجدة، 1415 هجريــة الموافــق 1994 ميلادية .

22 ــ الزبيدي (محمد مرتضى)، تاج العروس المطبعة الخيرية، المنشأة بجمالية مصر المحمية سنة 1306 هجرية .

23 ــ د. سامي الدروبي، علم النفس و الأدب، دار المعارف بمصر، 01971

24ــ ستانلي هايمن، النقد الأدبي و مدارسه الحديثة، الجزء الأول، ترجمة د. إحسان عباس و د . محمد يوسف نجم دار الثقافة بيروت 01958

25ــ د. سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط1 1997 .

26ــ د . سيد محمد السيد قطب، هوية الخطاب النقدي، أعمال المؤتمر الدولي الأول للنقد الأدبي القاهرة، أكتوبر 1997، مطبوعات المنار العربي، المجلد الثاني، القاهرة ط1999،1 .

27ــ د . سيزا قاسم، القارئ والنص، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، 2002 .

28ــ سيغموند فرويد: ــ التحليل النفسي والفن، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت ط1 1979.

29ــ : ــ الموجز في التحليل النفسي، ترجمة د. سامي محمود علي وعبد السلام القفاش، مراجعة د. مصطفى زيور، دار المعارف بمصر، ط1998،4 .

30ــ د. شاكر عبد الحميد: ــ التفضيل الجمالي، دراسة في سيكولوجية التذوق الفني، عالم المعرفة، الكويت، عدد 267، مارس، 2001 .

31– : علم نفس الإبداع، دار غريب، القاهرة، 1995.

32ــ د. شكري عياد، دائرة الإبداع، دار إلياس العصرية، القاهرة، د. ت.

33ــ د. صلاح فضل: ــ شفرات النص، بحوث سيميولوجية في شعرية النص والقصيد، دار الفكر، القاهرة، 1990 .

34ـ : ـ بلاغة الخطاب و علم النص، عالم المعرفة، الكويت، عدد 164، 1992 .

35ـ : ـ مناهج النقد المعاصر، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002 .

36ـ د. عبد القادر فيدوح، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1992.

37ـ د. عز الدين إسماعيل: ـ التفسير النفسي للأدب، دار المعارف بمصر، ط1 1963 .

38ـ النقد الأدبي إلى أين ؟ أعمال المؤتمر الدولي الأول للنقد الأدبي، القاهرة، أكتوبر 1997، مطبوعات المنار العربي بالقاهرة، ط1 1999 .

39 ـ د. عمر الطالب، مناهج الدراسات الأدبية الحديثة، دار اليسر، الدار البيضاء 1988.

40ـ د. فرج أحمد فرج: ـ التحليل النفسي للأدب، دراسة لمحتوى قصة ليلى والذئب فصول المجلد الأول، العدد الثاني، يناير 1981 .

41ـ : التحليل النفسي والقصة القصيرة، فصول، المجلد الثاني،العدد الرابع، 1982 .

42ـ : التحليل النفسي وألف ليلة و ليلة، فصول، المجلد الثاني عشر، العدد الرابع، 1994 .

43ـ د. فهد عكام الشعر الأندلسي نصاً و تأويلاً، دار الينابيع، دمشق، 1995 .

44ـ فولفجانج إيزر: عمليات القراءة، ترجمة علي عفيفي، فصول المجلد السادس عشر، العدد الرابع، 1998 .

45 – التفاعل بين النص والقارئ، ترجمة: الجيلالي الكدية، مجلة دراسات سيميائية أدبية، الدار البيضاء، ع7، 1992.

46 ـ د. كارل إبراهام، التحليل النفسي والثقافة، ترجمة: وجيه أسعد، وزارة الثقافة دمشق 1998.

47 ـ كارل غوستاف يونج، علم النفس التحليلي، ترجمة نهاد خياطة، دار الحوار اللاذقية، ط1 1985 .

48ـ د. لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب، الشركة المصرية العالمية، لونجمان، 1997 .

49 ـ د. لمياء باعشن، نظريات قراءة النص، علامات في النقد، عدد 39، النادي الأدبي الثقافي بجدة، مارس 2001 .

50ـ د. مجدي وهبة و كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، 1979 .

51ـ مجموعة من الكتاب، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة د. رضوان ظاظا مراجعة د. المنصف الشنوفي، عالم المعرفة، الكويت، عدد 221، 1997

52– مجموعة من المؤلفين، جاك لا كان و إغواء التحليل النفسي، إعداد وترجمة عبد المقصود عبد الكريم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 1999 .

53ـ د. محمد العيد الخطراوي، ثلاث نماذج تطبيقية لمحاورة النص، علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ربيع الآخر، 1423 هجرية، الموافق 2002 ميلادية.

54ـ د. محمد فتوح أحمد، الروافد المستطرقة، مطبوعات جامعة الكويت، 1998.

55ــ د. مصطفى عبد الغني، اتجاهات النقد الروائي المعاصر، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001.

56ــ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت.

57ــ د. نبيلة إبراهيم، القارئ في النص، نظرية التأثير والاتصال، فصول، المجلد الخامس، العدد الأول، 1984 .

58ــ د. نيفين زيور، من النرجسية إلى مرحلة المرآة، قراءات في التحليل النفسي، مكتبة الإنجلو ــ المصرية، القاهرة، 2000 .

59ــ د. هدى وصفي، الشحاذ، دراسة نفسبنيوية، فصول، العدد الثاني 1981 .

60 الولي بن محمد، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي و النقدي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ــ بيروت، ط1، 1990 .

61ــ د. يحيى الرخاوي: ــ إشكاليات العلوم النفسية و النقد الأدبي، فصول المجلد الرابع، العدد الأول 1983 .

62ــ قراءات في نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب1992 .

63 ــ د. يمنى العيد، في معرفة النص،، ط3، دار الآفاق الجديدة،بيروت 1985 .

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2003/3/13